الفصل الثالث

جان جاك روسو والعقد الاجتماعى

- اعترافات.
- الثروة الفكرية.
- تربية الطفل من المهد إلى الرشد.
- تحليل وتعليق:
  أ - بين روسو وأفلاطون.
  ب - إيجابيات المنهج.
  جـ - سلبيات المنهج.
- مبادىء النظرية السياسية.
- تقييم وتقويم:
  أ - حقيقة أم تشبيه.
  ب - توضيح.
  جـ - الوحي الإلهى.

فيلسوف وأديب ولد بجنيف في سويسرا عام ١٧١٢م من أسرة فرنسية الأصل ـ شقي بعواطفه، وتعس بمرضه وفقره، وعاش كَلاًّ على غير أهله، وارتاب في الناس جميعاً.. غير أن الحسناء قد تكون في المنبت السوء. فجادت قريحته: ـ في أوقات صفائها ـ بمناهج تربوية ونظريات سياسية ونظرات أدبية جعلت منه علماً من أعلام الفكر، وتركت له عميق الأثر في وثائق الثورة الفرنسية.

فما هي قصة ذلك النابغة الشقي؟!.

اعترافات:

سجل روسو قصة حياته بدقة متناهية وأمانة بالغة في كتابه «اعترافات»[1] الذي نشر بعد وفاته، وعالج أيامه في بؤسها وحقارتها بالإضافة إلى كبريائها ونبوغها.

كان «إسحق روسو» والد الفيلسوف صانع ساعات ومعلم رقص وكانت أمه «سوزان برنار» ذات ميول أدبية وموسيقية، ويعتبر جان جاك روسو الابن الثاني لتلك الأسرة إلاّ أن مولده أودى بأمه إذ أصابها حمى النفاس فقضت نحبها.

وظل الابن مع أبيه ستة أعوام تمرن خلالها على القراءة في روايات تركتها أمه، وبعض كتب لجده في التاريخ وحياة العظماء.. ثم انتقل إلى

(١) اعترافات جان جاك روسو ترجمة محمد بدر الدين خليل.

كفالة خاله الذي أودعه مدرسة داخلية ظل بها بضع سنين عوقب في نهايتها عقاباً صارماً بسبب اتهام ظالم.

فترك المدرسة وانتقل إلى أحد الصناع ليعلمه حرفة النقش غير أن المعلم كان مستبداً عنيفاً فنفر منه جان جاك روسو بعد أن اكتسب رذائل الكذب والكسل والسرقة.

بلغ روسو السادسة عشرة من عمره فآثر أن يتحمل تبعة نفسه، فترك جنيف وألقت به المقادير في دير للرهبان الكاثوليك، والتقى هناك بجماعة من الشباب وجدوا في الإتجار بالدين سبيل رزق وغنيمة، ومكث شهراً ودّع خلاله دين آبائه البروتستانتي وخرج ومعه عشرون فرنكاً.

ثم ضاقت الحياة في وجه روسو، فعمل خادماً في البيوت وتسول في المزارع وجال في المدن وأخفق في تعلم الموسيقى والغناء، ولكنه تجاسر وأقام حفلة للطرب في «لوزان» فما كان من السامعين إلاّ السخط والغثيان.

وتعرف بقس يجمع تبرعات للقبر المقدس عمل معه كمترجم، فإذا بالقس يظهر أنه محتال ويقبض عليه، إلاّ أن القنصل الفرنسي الذي ألقى القبض على القس يثق في براءة «روسو» ويلحقه بخدمته ثم يرسله إلى باريس سكرتيراً لأحد الضباط من أقاربه. لكن الضابط لم يحسن استقباله فهام روسو على وجهه مرة أخرى، وتقلب من عامل في هيئة المساحة إلى دارس للموسيقى والفن إلى معلم فاشل للصغار في وقت تزايدت عليه آثار المرض حتى اعتقد أنه مصاب بمرض في القلب هو أصل كل بلواه.

وتمكن روسو من مخالطة أدباء باريس ومخاللة نساء قصورها، وحظي عندهن بالمكانة السامية فاستطاع أن يحصل على وظيفة سكرتير السفارة الفرنسية في البندقية، ولم يحافظ على وظيفته الجديدة وأهمل الأوامر التي تصدر إليه فصرف من الخدمة وقرر العودة إلى باريس، وبدأ نجم سعوده في الكتابة فقد أعلن المجمع العلمي عن مسابقة في موضوع هو: هل

أسهمت النهضة العلمية والفنية في إفساد الأخلاق أم في إصلاحها؟!.

وكتب روسو الجواب تحت عنوان: مقال في العلوم والفنون.

وآثر جانب النفي وفاز بالجائزة عام (١٧٥٠) وأصبح من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان.

وبدأ يمارس كتاباته المسرحية والموسيقية، ولم يطل به الأمر حتى قرر الرجوع إلى جنيف مسقط رأسه، والعودة إلى البروتستانتية دينه القديم بيد أنه لم يستقر هناك إلاّ أربعة أشهر عاد بعدها إلى باريس وظلت كتاباته تتقاطر حتى ظهر: أصل التفاوت، وإميل، والعقد الاجتماعي.. فجرت عليه ويلات كثيرة واستصدار أحكام ضده فتنقل هارباً بين فرنسا وسويسرا وإنجلترا، متردداً على قصور الأمراء والنبلاء إلى أن ساءت صحته وداهمته منيته على مقربة من باريس عام ١٧٧٨م.

وشخصية روسو غريبة متناقضة ومفتاحها هو الصغار الأخلاقي، وقد أحصيت أكثر من خمس وعشرين امرأة اتصل بها روسو اتصالاً جنسياً، أو وقف معها موقفاً غرامياً فضلاً عما اقترفه من شذوذ وما جناه من جرائم تقشعر منها الأبدان، وخاصة حين أرسل أطفاله الخمسة إلى ملجأ اللقطاء بلا اسم ولا نسب!!..

الثروة الفكرية:

خلف روسو ثروة فكرية تركت بصمات بارزة في السياسة والدين، في الأدب والفن.. في التربية والاجتماع.. تلتقي في إطار واحد، هي أنها صورة واضحة لحياته، وترجمة ذاتية لمشاعره وأعماله، فالعودة إلى الطبيعة والفطرة القانعة إنما هي حياة روسو المشردة التي لم يملك فيها بيتاً، ولم يقتصر على زوجة ولم يشعر بشعور الأبوة.. ورأيه في الدين المدني إنما هو انعكاس لتقلبه بين البروتستانتية والكاثوليكية ومعرفته عن قرب بمفاسد الكنيسة ومساوىء رجالها.. وما كانت رواياته الأدبية إلاّ تعبيراً عن مواقف

حياته في الألم والأمل، وعلاقاته مع المرأة المحبة والمبغضة، الزوجة والعانس، الحكيمة والجاهلة.

ولعل محور تراثه الفكرى يرتكز على:

أ ـ رأيه في الأخلاق:

وقد ضمنه مقاله في العلوم والفنون الذي أحرز به الجائزة من أكاديمية ديجون الفرنسية عندما طرحت موضوع مسابقتها السنوية (١٧٥٠) عن تقدم العلوم والفنون، هل ساعد على إفساد الأخلاق أم على إصلاحها؟!

وتناول روسو الموضوع على أساس أن كل تقدم في العلوم هو ردة عن الأخلاق وقرر أن الترف والانحلال والرق في كل زمان كان جزاء وفاقاً للجهود التي صرفت للخروج عن الطبيعة الأولى.. وعزا العلوم في أصلها إلى نقائص الإنسان، فأصل الفلك الطيرة، وأصل الفصاحة الطمع والنفاق، وأصل الهندسة البخل، وأصل الطبيعة الطلعة الكاذبة وأصل كل العلوم هو الكبرياء، واستشهد روسو على رأيه بالتاريخ في مصر واليونان وروما والقسطنطينية حينما كانت في جهالتها الطبيعية السعيدة حكمت العالم، وأنجبت الأبطال ثم ما لبثت أن أخذت من العلوم والفنون بحظ وافر، فأضحت فريسة كل دخيل.. ولو جاء عظماء الرجال من هذه الأمم يوم عرفوا العظمة في البقاء في أحضان الطبيعة الجاهلة ورأوا اليوم ما لحق بأهل بلادهم لولوا مدبرين.

واستمع إلى روسو وهو يصف عودة أحد زعماء روما[1]:

إيه فابرسيوس..!!

ماذا كان يجول بروحك العظيمة لو بعثك نكد الطالع مرة أخرى إلى الحياة ورأيت الصورة البديعة الحاضرة لروما التي أنجاها قديماً ذراعك،

(١) جان جاك روسو حياته وكتبه ـ د. محمد حسين هيكل ص ٨٣.

وخلد لها وقار اسمك من الفخار أكثر مما أقامت لها كل غزواتها من المجد؟.

إنك كنت لا شك تقول: يا آلهة السماء ماذا أصاب هذه السقوف وتلك المنازل الريفية التي كانت مستقر التواضع والفضيلة في الماضي؟! أي فخامة متعوسة عقبت البساطة الرومانية؟! ما تلك اللغة الغريبة عنا؟!.

وما هذه الأخلاق المخنثة؟! أي معنى لهذه النصب والتماثيل والصور والقصور؟! ماذا صنعتم يا هؤلاء المجانين؟! أصبحتم ـ وأنتم سادة الأمم ـ عبيد الرجال الطائشين الذين أخضعتم؟!.

أهم الثرثارون الذين يحكمونكم؟ وهل ليثرى البناءون والنقاشون والنحاتون والمهرجون رويتم بدمائكم اليونان وآسيا؟! وهل تكون آثار قرطاجنة ملهى الزمار؟.

ألا عجلوا أيها الرومانيون فاهدموا هذه المسارح، وكسروا تلك النصب، وحرقوا هذه الصور، واطردوا أولئك العبيد الذين يذلونكم وتفسد نفوسكم فنونهم المتعوسة!!.

وينادي روسو بأن مبادىء الفضيلة منقوشة في كل القلوب ويكفي لمعرفة قوانينها أن يرجع الإنسان إلى نفسه ويسمع صوت ضميره، ثم يقول:

يا شعوب الأرض اعلمي ولو مرة واحدة أن الطبيعة شاءت أن تبعد عنا خطر العلم، كالأم التي تنتشل سلاحاً خطيراً من يد ولدها.

وإن الأسرار التي نخفيها عنا ليست سوى مهاوٍ تريد أن تكفينا شرها، وإن العناء الذي نلقاه في تحصيل العوم هو منة علينا منها.

أجل إن الإنسان ناقص.

لكنه لو ولد عالماً لكان أشد نقصاً..!!

ب ـ رؤيته للطبيعة:

في عام (١٧٥٣) أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة في موضوع أصل التفاوت بين البشر وهل يقره القانون الطبيعي؟.

فأعد روسو عدته ليشارك في تلك المسابقة لكنه أخفق هذه المرة في الحصول على جائزتها.. ومع ذلك نشر بحثه عام ١٧٥٤م.

ومصدر رؤيته للموضوع هو الخيال الجامح والتعليل الافتراضي وليس حقائق التاريخ أو استقراء الواقع.. فهو يقول في مفتتح البحث:

أيها الإنسان إليك تاريخك كما اعتقدني قرأته لا في بطون الكتب التي وضعها أمثالك، فإنهم كاذبون ولكن على صفحات الطبيعة التي لا تكذب أبداً.

والبحث قسمان[1]:

الأول: يصور الإنسان في طبيعته الأولى، لا يعرف قيوداً ولا حواجز ويتصرف بتلقائية وغريزة، وكل ما يعرفه من الكون هو الغذاء والأنثى والنوم، فحاجاته قليلة وإرضاؤها سهل سريع، يتناول طعامه من أقرب شجرة ويشرب من أول غدير ويجد مرقده عند جذع الشجرة التي قدمت له ثمارها، لا يخاف لأنه حيوان ككل الحيوانات الضالة الهائمة، ويقضي وطره مع أول أنثى تصادفه بلا عواطف الحب والهيام، ومتى شعرت المرأة بآلام المخاض وضعت صغيرها وسعت عليه إلى أن يشب عن الطوق فتتركه وشأنه، ولم يكن ثم تفاوت أو تمييز بين إنسان وآخر لأن علاقاتهم كانت محدودة، وتعمهم جميعاً السعادة بنعيم الجهل وهناء القناعة، ولا يستشير بالهم همٌ ولا يداخل نفوسهم طمع، ويعيشون كل ساعة لوقتها

---

(١) انظر:

أ ـ الفكر السياسي الغربي د. علي عبد المعطي محمد ص ٢٩٨.

ب ـ جان جاك روسو حياته وكتبه د. محمد حسين هيكل ص ٩٥.

غير مفكرين لمستقبل ولا ذاكرين لماضي ولا مريدين جديداً؛ لأن الإنسان الذي يفكر هو حيوان فسد مزاجه!!.

الثاني: حين ابتدأ الإنسان يفكر للغد ظهرت عليه أعراض عدم المساواة وقدم معها البؤس والشقاء، وعندما مال بعض الناس إلى الاجتماع والتعاون توالت عليهم شرور الأنانية والحروب والرذائل.

وإن أول إنسان أحاط قطعة من الأرض بسياج وقال «هذا ملكي».

ووجد من صدقه في زعمه ـ هو أول من وضع قواعد المجتمع المدني.

ولو أن أحداً أقدم آنذاك على هدم هذا السياج هاتفاً بأبناء جنسه:

احذروا من أن تصدقوا كلام هذا الكذاب، ولا تنسوا أن ثمر الأرض للجميع وأن الأرض ليست لأحد..!!

فكم كان وفر على الإنسانية من جرائم وفظائع.

إن أساس المدنية وأهوالها هو فكرة الملكية وأن الانقلاب الأكبر في حياة الناس قد نجم عن انتشار الزراعة واكتشاف التعدين، وأصبح كل فرد في حاجة إلى تعاون الآخر وأوضح ذلك التعاون: أن بين الناس تفاوتاً في المهارة والقوة، وأدى هذا التفاوت الطبيعي إلى تفاوت اجتماعي يتمثل في تفوق الأقوياء وسيطرة الأكفاء، فانطلقت الأهواء من معاقلها وشعر الناس بالظلم وأرادوا وضع حد له فاصطنعوا القوانين والنظم.

وكلما أوغل الناس في الاجتماع تورطوا في عدم المساواة، وقاسوا أهوال التفاوت، واستبد بهم الطغيان الذي يلتهم كل ما هو طيب وجميل..

ويقارن روسو بين حرية ابن الطبيعة ورق ابن المدنية فيقول:

وكما أن الفَرس غير المروض ينفش شعره ويضرب الأرض برجله وتشتد حركته لمجرد إدناء اللجام من فمه؛ بينما يحتمل الفرس المروض

السوط والنخس بصبر وجلد، كذلك لا يطأطىء الرجل المستوحش رأسه للنير الذي يحتمله المتمدن في غير ضجر، ويفضل الأول الحرية بملقتها على الخضوع براحته!!.

جـ ـ منهجه التربوي:

«إميل أو في التربية»[1] كتاب وضعه روسو وبث فيه منهجه التربوي حيث تخيل طفلاً سماه «إميل» وجعل منه نموذج الإنسان المثالي الذي يقترح أن تكون التربية على منواله.

والكتاب مقسم إلى خمسة أجزاء، الأربعة الأولى خاصة بتربية إميل في مراحله المختلفة من الميلاد إلى بلوغ سن العشرين، والجزء الخامس فصّل فيه تربية البنت، وتصور لذلك فتاة تسمى «صوفيا» جعلها نموذج الفتاة المثل.

واستهل روسو كتابه بكلمته المشهورة:

«يخرج كل شيء حسناً من بين يدي مبدع الكائنات، ثم يعتوره الفساد والنقص بين يدي الإنسان، فهو يُكره أرضاً على أن تغذو نبات أرض أخرى، وشجرة أن تحمل ثمر شجرة أخرى، وهو يخلط الطقوس والفصول، ويخصي كلبه وحصانه وعبده، ويقلب كل شيء ويفسد كل موجود، وهو يشوه كل شيء ويهوى الشناعة ولا يرتضي شيئاً على ما صورته الطبيعة، حتى ولا الإنسان بل هو يريده مهذباً كما يحب كأنه حصان الملعب، ومشذبا كما يريد كأنه شجرة في حديقته».

د ـ نظريته السياسية:

يعتبر كتاب العقد الاجتماعي[2] أضخم عمل فكري ناقش فيه

(١) للكتاب ترجمتان الأولى لعادل زعيتر نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦. والثانية للدكتور نظمي لوقا تقديم أحمد زكي محمد نشر الشركة العربية سنة ١٩٥٨.

(٢) هناك ترجمتان أيضاً واحدة لعادل زعيتر نشر دار المعارف سنة ١٩٥٤ والأخرى لعبد الكريم أحمد مراجعة توفيق اسكندر ضمن مشروع الألف كتاب لوزارة التعليم العالي.

روسو الميثاق الاجتماعي وحقوق السيادة وحدودها والحكومة وأشكالها والنظم السياسية وعقائد الدين المدني الذي أقامه على أنقاض الكهنوت الكنسي.

وانطلق روسو من فكرة عبر عنها في مفتتح كتابه هي:

ولد الإنسان حراً ولكنه في كل مكان مكبل بالأغلال ـ وهذا ما لا يتصوره السيد الذي يتحكم في الآخرين وهو أكثر منهم عبودية ـ فكيف حدث هذا؟ لست أدري وما الذي جعله مشروعاً؟!.

هذا سؤال اعتقد أني أستطيع الإجابة عنه.

هذه هي العقدة التي يحلها روسو شارحاً كيفية الانتقال من حرية الطبيعة إلى حرية القانون، ومقارناً بين ما اكتسبه الإنسان حال المدنية وما فقده نتيجة العقد الاجتماعي.

وبعد ـ فإن تلك الملامح العامة لتراث جان جاك روسو لجديرة بأن تثير همم الباحثين في كل فن، ولعل في دراسة تصوره للمجتمع المثالي ما يجمع خلاصة فكره وزبدة آرائه، إذ المجتمع مجموعة أفراد يحكمهم قانون وتشرف عليهم حكومة، وقد قدم روسو منهاجاً لتربية الأفراد ونظرية لحكمهم.

وهنا نحن نبرز ذلك المنهاج وتلك النظرية ثم نسلط عليهما من أضواء الحق ما يكشف جوانبها المختلفة.

تربية الطفل من المهد إلى الرشد:

كيف نربي الفتى على سنة الفطرة النقية؟.

ما هي قواعد التربية التي يجب أن يقتفيها كل من الأب والأم؟.

ما هي رسالة المرأة وكيف تهيأ لممارستها؟.

متى يقف المرء على أمور دينه ويتأهب لحياته العقلية والفكرية؟.

وإلى أي مدى يحتاج الناس إلى الطبيب والفيلسوف والكاهن؟.

قدم روسو في كتاب «إميل» إجابة على هذه الأسئلة تجمع بين نظرات عالم النفس وفكر فيلسوف التربية وخيال الشاعر الموهوب.

والهدف السامي لروسو من مناهج التربية هو إعداد الطفل للحياة الإنسانية في نشاطها العام ووظائفها الأساسية ولا يعنيه أن يكون تلميذه قاضياً أو جندياً أو قسيساً، بل أن يكون إنساناً قبل كل شيء، ولتحقيق ذلك الهدف يجب مراعاة أساليب التربية في كل مرحلة من المراحل التي يمر بها الفتى من المهد إلى الرشد.

وإليك موجز تلك الأساليب.

أ ـ الطفولة الأولى:

١ ـ الإنسان الحديث يولد ويعيش ويموت في رق العبودية فهو حين يولد يوثقونه بقماط وحين يموت يسمرون عليه تابوتاً وما دام على وجه الأرض فهو مكبل بشتى النظم.

إن التضييق على أطراف الطفل يعوق دورة الدم، ويعطل النمو ويغير من تكوينه وبنيته، ويلاحظ أنه حيث لا يبالغ الناس في هذه الاحتياطات يشب الطفل قوياً ذا فراهة وتناسق.

٢ ـ إن الحرمان من لبن الأم هو الأصل الذي تنبعث منه جميع الشرور، إذ خمدت في القلوب جذوة الفطرة، وقلت في البيوت نسمة الحيوية، وإذا أمكن توفير اللبن للطفل من امرأة أخرى أو دابة فإن حنان الأمومة لا يستعاض عنه، ومتى أقبلت الأمهات على إرضاع الأطفال فما أحرى الأخلاق أن تصلح من تلقاء نفسها.

٣ ـ إن التجربة تدل على أن الأطفال المرفهين عرضة للموت أكثر من غيرهم..

فمرسوا أطفالكم بالمتاعب التي سيكون من الحتم عليهم احتمالها

يوماً ما. وقووا أجسامهم بالتعرض لاختلافات الفصول والأجواء والجوع والعطش. وثقوا أن الطفل أكثر احتمالاً للتغيرات من الرجل فمفاصله أطوع وأشد مرونة.

٤ ـ كما تكون المرضع أم الطفل الحقيقية يجب أن يكون المؤدب له أباه الحقيقي. ويعتقد روسو أن تربية الطفل بيد أقل الأباء تسامحاً وثقافة، هي أفضل بمراحل من تربيته بيد أبرع أساتذة العالمين؛ لأن الاهتمام والغيرة قد تغني عن البراعة ما لا تغنيه البراعة عن الاهتمام والغيرة.

ومتى قعدت صحة المرأة عن إرضاع ابنها، وحالت شواغل الأب دون قيامه بواجب المربي وتفرق الأبناء بين المراضع والمدارس ضاعت الألفة بين الوالدين، وامتنع على الأسرة أن تمنح الأبناء عذوبة الحياة، ولا مناص حينئذ من أن يلجأ المحرومون إلى المباذل والرذائل الموهومة عوضاً عن تلك الحلاوة المفقودة.

ويقول روسو بعبارته الأدبية الرشيقة محذراً:

وإني لنذير بين يدي ندم شديد لكل من به نسمة حياة ثم تخلى عن تلك الواجبات المقدسة، ليذرفن الدمع السخين على ما فرط فيه ولن يجد له من حسراته سلوانا.

٥ ـ الطفل ليس في حاجة إلى الطبيب فلا خير في الطب، وإذا أردت أن تعثر على رجال ذوي شجاعة حقيقية فالتمسهم في المواطن التي ليس فيها أطباء.

وحيث يجهل الناس عواقب الأمراض لا يفكرون مطلقاً في الموت، فالإنسان يعرف كيف يتجلد ويتألم بثبات وكيف يموت بسلام، والطبيب لا يشفي من الأمراض بقدر ما يشيع في نفوسنا الذعر، ولا يرغم الموت على التراجع بقدر ما يجعله محسوساً قبل الأوان.

إن الجانب الوحيد المجدي من علم الطب هو علم الصحة بيد

أن علم الصحة فضيلة أكثر منه علماً، فالاعتدال والعمل هما الطبيبان الأوحدان للإنسان فالعمل يشحذ شهيته والاعتدال يعصمه من الإفراط فيها.

٦ ـ أولى إحساسات الطفل تكون انفعالية فلا شيء عنده يخرج عن محيط اللذة والألم، والعادة الوحيدة التي يجب أن ندع الطفل يكونها هي ألاّ تكون له عادة ثابتة، ومتى بدأ الطفل في التمييز عودناه على مشاهدة أشياء جديدة وحيوانات غير مألوفة.

ب ـ الطفولة من سن السادسة إلى الثانية عشرة:

١ ـ الأطفال لا يميزون معاني سلوكهم إلاّ بالأثر الحسي، ومتى استطاع الطفل أن يقول: إني اتألم، فيجب ألاّ يعمد للبكاء إلاّ إذا أصابته آلام موجعة جداً، ومهما كان الألم شديداً على الطفل فمن النادر أن يبكي إذا كان بمفرده إلاّ حين يوجد عنده الأمل في أن يسمع بكاءه أحد من ذويه، ولهذا فمن الخير أن نجعل بكاءه من غير فائدة بحيث يستنفد طاقته ويكف عن الصياح، ولكن بمجرد أن يسكت نسرع إليه وحينئذ يدرك أن الطريقة الوحيدة للاستدعاء هي أن يسكت أو على الأكثر أن يطلق صرخة واحدة.

٢ ـ إن الألم هو أول شيء يجب أن يتعلمه الطفل، والفتى الذي يكبر من غير أن يتمرس بالألم يظل بلا خبرة ولا شجاعة حتى أنه يتوهم الموت عند أول وخزة، ويغمى عليه عندما يرى أول قطرة تسيل من دمه.

٣ ـ للإنسان مكان محدد في ترتيب الموجودات الطبيعية كذلك للطفولة مكانها المحدد في ترتيب الحياة البشرية ومن العبث أن ننشد في الطفل مسالك الرجال، والواجب أن نرعي في الطفل لهوه وملذاته وطبيعته اللطيفة.

٤ ـ التجربة أو العجز هما القانون الوحيد الذي يجب أن يشعر به الطفل

فلا يوضع أمام الطفل وإرادته الطائشة إلاّ عقبات مادية أو عقوبات ناتجة عن أفعاله نفسها، بحيث يتذكرها كلما جاءت مناسبتها.

٥ ـ من الضرورى أن نمحو من قاموس الطفل ألفاظ الطاعة والواجب والالتزام، ونثبت مكانها ألفاظ القوة والضرورة واللزوم والعجز والاضطرار، وقبل سن الرشد يجب عدم استخدام المقولات الأخلاقية، خوفاً من أن يقرن الطفل تلك الألفاظ بمدلولات خاطئة قد نعجز عن القضاء عليها فيما بعد، والتربية الأولى يجب أن تكون سلبية خالصة.

٦ ـ أول شعور بالعدل ينبغي أن يكون نابعاً مما يجب للطفل وليس مما يجب عليه، وإنها لإحدى تخبطات التعليم الشائع والتربية السائدة أن يكلموا الأطفال أولاً عن واجباتهم ولا يحدثوهم مطلقاً عن حقوقهم، وأول فكرة يجب تلقينها له هي الملكية، ولكي يستطيع إدراك هذه الفكرة يمكن له في أن يملك شيئاً لنفسه.

٧ ـ علينا أن نعفي الأطفال من الحفظ والدرس والكتب ونكتفى بتعليمهم القراءة تدريجياً بواسطة الباعث الشخصي أي بمناسبة ما يصله من دعوات للنزهة أو الغداء، والمهمة الرئيسية في هذه المرحلة هي العناية برياضة جميع الحواس واستخلاص أقصى ما تستطيع أن تقدمه كل حاسة وممارسة السباق وتعلم الرسم من الطبيعة مباشرة.

ويحذر جان جاك روسو من إرهاق قوى الطفل بما يجاوز طاقته، فإن أظهر رغبة في النشاط الذهني فلنترك له مطلق الحرية، ولكن لا ندفعه إلى ذلك دفعاً، ومتى أبدى رغبته في التوقف عن نشاطه الذهنى المبكر فلندعه وشأنه، فإن البذور الأولى لذلك النشاط قد تختمر وتثمر فيما بعد بسنوات أما الآن فإنك تقتلها بالافتعال والإكراه.

ويعرض روسو لوجهة النظر الأخرى فيقول:

إنك تخشى أن يقضي الطفل السنين الأولى من حياته لا يعمل

شيئاً، على رسلك، ألا تعتبر المرح والسعادة والقفز والنط طول النهار شيئاً مذكوراً؟! وماذا عساك تقول في رجل يأبى أن ينام حتى لا يهدر هباء جزءاً من عمره؟! إخالك قائلاً: إنه مجنون أو مخبول فهو بذلك يهدر عمره كله لأنه يفسد على نفسه استمتاعه بحياته، تذكر هذا جيداً وتذكر أيضاً أن الطفولة التي تبتسر ملاهيها كالحياة التي تذاد عن النعاس فالطفولة هي نعاس العقل!!.

* * *

جـ ـ الغلام من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة:

١ ـ هدف هذه المرحلة أن نربي فيه الذوق ليحب العلوم، ونربي لديه مناهج تعلمها بنفسه، فلنجعل التلميذ يتتبع ظاهرات الطبيعة من ليل ونهار، وشمس وقمر، وحر وبرد، ولنوقظ فضوله نحوها، ولنضع المسائل في متناول يديه ولا نتركه يقرأ في كتاب ما، ولنحاول أن نحول بينه وبين مقارنة نفسه بسواه من الأطفال؛ لأنه لن يجني من ذلك إلا إحدى سيئتين إما الحسد وإما الغرور، وليكن هو معيار نفسه.

وينبغي أن يعود الطفل على الشعور بمنفعة ما يتعلمه وجدواه، وبذلك يتعود ألا ينقاد لشيء انقياداً أعمى.

٢ ـ من الضروري للغلام أن يتعلم مهنة شريفة نافعة، ويرى روسو أن الزراعة أشرف المهن وأنفعها، وأن العمل اليدوي أقرب جميع الأعمال البشرية إلى حال الطبيعة، وأن خير طبقة من حيث الاستقلال عن عوادي الزمن هي طبقة الصناع.

وليس الغرض من تعلم المهنة التكسب بها حتماً بل الغرض ـ بالمقام الأول ـ هو القضاء على مزاعم الناس بصدد العمل اليدوي، ويحذر جان جاك روسو من مهن الترف مثل الموسيقي والممثل والمؤلف والمطرز، إلخ ويفضل أن يكون صانع أحذية على أن يكون شاعراً.

٣ ـ يدرب الغلام على تصحيح أحكام حواسه بالمقارنة بينها، وعلى سبيل المثال يتخذ من تجربة العصا التي تبدو مكسورة في الماء مقياساً تقريبياً لما يتراءى لراكب السفينة المتحركة من أن الأرض هي التي تتحرك، وما يبدو للساري في الليل من أن القمر يجري بسرعة حين يمر بيننا وبينه سحاب سريع.

وعلى هذه الوتيرة يتعلم الغلام التمييز الذهني والتفكير العلمي وتتكون لديه ملكة الحكم التي تقوده في طريق تحصيل المعارف العلمية بنفسه.

٤ ـ نعلم الغلام أن من الخطأ الاعتماد على السماع من الناس أو تلقين المعلمين، وكل مهمة المربي أن يضع قدمه على طريق المعرفة السوي وليس الهدف أن يمنحه للعلم بل أن يعلمه كيف يكتسبه عند الحاجة.

د ـ المراهقة والتعليم الديني:

١ ـ المراهقة تبدأ بنذر من التغيرات في المزاج وفي الشكل وفي سحنة الوجه وتصاحبها أهواء ورغائب، ومن الأفضل أن نؤخر ما استطعنا فضول الأطفال في الأمور الخاصة بالبلوغ وإذا وجهوا إلينا أسئلة فمن المستحسن أن نلزمهم الصمت خيراً من أن نكذب عليهم، ومتى قررنا تنويرهم في هذه المسائل فيلكن الكلام معهم مصطبغاً بطابع الجد ولا نتخذ سذاجتهم فيها وجهلهم بها موضوعاً للمزاح، فإن المزاح في تلك الأمور يمهد للإباحية فيما بعد.

٢ ـ إن ضعف الإنسان هو الذي يجعله اجتماعياً، وعناصر الشقاء المشتركة بيننا هي التي تدفع قلوبنا إلى معاني الإنسانية، وإن منظر الرجل السعيد لا يلهم الناس الحب بقدر ما يثير فيهم الحسد، ولهذا لا نعرض على أنظار الشباب منذ لبداية صور الرفاهية كما تتبدى في أبهة القصور وبذخ الطبقات العليا، حتى لا نغرر بهم ونخدعهم عن

الطبيعة البشرية في جوهرها الحقيقي، فإن الناس من حيث طبيعتهم ليسوا ملوكاً ولا عظماء، وكافة الناس يولدون عراة فقراء معرضين للأوجاع وسائر صنوف الآلام وهم جميعاً محكوم عليهم بالإعدام.

٣ ـ دراسة التاريخ في وقائعه المجردة مطالب بها في ذلك الوقت، ولكن أسوأ المؤرخين بالنسبة للشباب هم أولئك الذين يعلقون على الأحداث ويصدرون الأحكام ولا يدعون للشباب فرصة الحكم بأنفسهم عليها، إن التاريخ على العموم ناقص معيب؛ لأنه لا يسجل إلاّ الوقائع البارزة ولا يبرز من حياة الرجال إلاّ مواقف محددة في لحظات مختارة دون تعقب كامل لكافة جوانب حياتهم في مراحلها المختلفة.

ويجب ألاّ ننسى أن الوقائع التي يذكرها التاريخ ليست صورة مطابقة تماماً لما حدث فعلاً؛ لأنها تتخذ صورة جديدة على حسب وجهة نظر المؤرخ أو مصالحه، حتى لو لم تتغير أي لمحة تاريخية واقعية فإن الإسهاب في بعضها والإيجاز في بعض آخر يعطيان الظروف مخالفة، وبالتالي يلقيان على الحوادث ظلاً مخالفاً.

٤ ـ متى وقع الشاب في الأخطاء فهذا إيذان ببداية عصر الأسطورة في تربيته، فإن التنديد بالمذنب تحت ستار شخصية أسطورية يتيح للمعلم تهذيب التلميذ من غير أن يهينه.

إن الأسطورة تعين الشاب على استخلاص قاعدة أخلاقية من حادثتها الفردية وتساعد تلك الحادثة المنظومة على رسوخ القاعدة في ذاكرته، وما من فكرة أخلاقية يستحيل اكتسابها عن طريق تجربتنا الشخصية إلاّ ويمكن استخلاصها من تجربة الآخرين: إما عن طريق التاريخ أو عن طريق الأسطورة.

٥ ـ قبل الثامنة عشرة من عمر الشاب يكون الوقت غير مناسب لإعلان الحقيقة الإلهية، وخير ألف مرة أن لا يكون لدى الفتى فكرة إطلاقاً

عن الإلهيات من أن تتكون لديه أفكار مسفة خرافية لا تليق بجلالها، فذلك أهون الضررين.

وبعد ذلك يشرح المربي لتلميذه معالم الدين الطبيعي وحدوده التي لا تتعداها أنوار العقل البشري وهي:

- هناك إرادة تحرك الكون والطبيعة.
- هناك عقل مدبر وراء تناسق حركات الكون.
- الإنسان حر في أفعاله ويكمن فيه جوهر غير مادي.
- في قرارة النفوس مبدأ فطري للعدل والفضيلة يقيس أفعالنا وأفعال سائر البشر، ويحكم عليها بالخير أو بالسوء وهذا المبدأ هو الضمير.
- لباب الأديان جميعها واحد وهو أن نؤمن بالله وكمالاته القدسية، وأن نتجنب التطرف في التقوى فإن ذلك يقود إلى العصبية العمياء، وأن نبشر بالإنسانية والتسامح، ولا نبالي في الحق لوم اللائمين وأن نخالف الهوى والمصلحة الخاصة.

هذا هو الدين الطبيعي الذي يكتفي به المربي مع تلميذه، فإن أحب أن يكون له دين آخر فذاك شأنه وحده واختياره لنفسه.

٦ - الرغبات الجسدية الناشئة في الشاب قوية وجارفة، وفي الاستطاعة تأخير يقظتها والإبقاء على البراءة الطاهرة إلى سن العشرين، وذلك بالأعمال الشاقة التي تجمد ثورة الحس وتوقف شطط المخيلة.

وعندما يحين الوقت الذي نصارح فيه الشاب يجب أن نتخير المناسبة والزمان والمكان، وأن نحدثه في الموضوع ببساطة وهدوء. ونتكلم معه في الحب والنساء والملذات بصراحة، ونشرح له مدى الأمان فيها ومواطن الخطر بحيث يسلمني قياده عن ثقة من فهمي له وتسامحي معه وحرصي على منفعته ومصلحته.

٧ - من واجب المربي أن يجنب الشاب المجتمعات المختلطة التي تسيطر فيها

المرأة على الأذواق، والمجتمعات المترفة التي يسيطر فيها المال على الفنون، ويطمس فيها البذخ جمال الفطرة الطبيعي.

ويستعين على تربية ذوقه بفنون الشعر والمسرح، ويعلمه أن السعادة في الجمال وليس في الثروة. ويلزم به الطبيعة عن كثب فيقيم في حجرة ذات أثاث بسيط لا تثقل حياته مراسم الخدمة الباذخة ومظاهر الوجاهة الكاذبة.

وأخيراً.. ليدرك الشاب أن الخطر الداهم كامن في المدينة، حيث فقد النساء إيمانهن بالشرف وحيث فقد الرجال إيمانهم بالفضيلة.. وفي فسحة الريف النظيف علينا أن نبحث عن الحب والسعادة والطهر في صورة فتاة نموذجية تصلح زوجاً لذلك الشاب النموذجي!!.

هـ ـ المرأة النموذجية:

ما هي المرأة المثلى؟.

كيف تكون تربيتها؟ وما رسالتها في الحياة؟.

حاول روسو أن يقدم تصوره الخاص بالمرأة التي يبحث عنها تلميذه «إميل» لتكون زوجاً له.. وقد بسط مجموعة آراء نلخصها فيما يلي:

١ ـ إن الله سبحانه وتعالى أراد في كل أفعاله تكريم النوع البشري حينما أعطى الرجل ميولاً لا حد لها، ومنحه في الوقت عينه القانون الذي ينظمها وهو العقل.. أما المرأة فقد أعطاها رغبات غير محدودة وشفعها بالحياء..

وقانون الطبيعة الذي يحكم الجنسين هو أن الرجل إيجابي قوي، والمرأة سلبية ضعيفة، والقول العائم المائع بتساوي الجنسين في الواجبات هو تشدق بشعارات جوفاء، إن الغاية من أعمالها مشتركة ولكن الأعمال نفسها متباينة، وجميع الملكات المشتركة بين الجنسين ليست موزعة على السواء ولكنها تتكامل، فالمرأة أكمل في خصائص

المرأة منها في خصائص الرجل، وكلما حاولت سلب خصائص الرجل تخلفت وراءه فيها وليس لهذه القاعدة غير شواذ قليلة يسوقها أنصار الجنس اللطيف، وإن تنمية خواص الرجل لدى المرأة وإهمال خواصها الأصلية خليق أن يضر بالمرأة ضرراً بليغاً.

٢ ـ إن المرأة والرجل قد جعل كل منهما للآخر، ولكن تبعية كل منهما للآخر ليست متكافئة فالرجال يتبعون النساء عن طريق رغباتهم لكن النساء يتبعن الرجال عن طريقين:

١ ـ طريق الرغبة.
٢ ـ طريق الحاجة.

ونحن الرجال أقرب إلى القدرة على البقاء بدونهن منهن على البقاء بدوننا، والنساء كذلك خاضعات لعواطفنا ولتقديرنا لمحاسنهن الجسدية وفضائلهن الخلقية، وقد شاء قانون الطبيعة أن تكون النساء تحت رحمة آراء الرجال فيما يخصهن، فلا يكفي أن يكن جميلات بل يجب أن يرقن الرجال بجمالهن، ولا يكفي أن يكن حكيمات بل يجب أن يعترف لهن الرجال بالحكمة، ولا يكفي لهن شرف السلوك بل يجب أن يكون لهن أيضاً شرف السمعة.. أما الرجل فلا يخضع إلاّ لذات نفسه وبوسعه أن يتحدى الرأي العام.

٣ ـ واجبات النساء هي: إرضاء الرجال وتكريمهم وتربيتهم صغاراً ورعايتهم كباراً وإرشادهم بالمشورة والتسرية عنهم، وتهوين الحياة عليهم.

وكلما ابتعدنا عن هذا المبدأ انحرفنا عن هدف تربيتهن، والعلاج الشافي أن نربي المرأة تربية نسوية صالحة، بحيث نطبعها على حب مهام جنسها والإشراف على بيتها والتسلي بأعمال التدبير وفنون البيت.

٤ ـ أهم ما يجب أن يراعى في منهج تربية المرأة هو:

أ ـ ينبغي أن يكون في النساء قوة لا تساوي قوة الرجل، ولكنها تكفي لإنجاب رجال فيهم قوة؛ لأن إفراط المرأة في الرخاوة يسبب رخاوة الرجال ويستعان على ذلك بالتربية الرياضية.

ب ـ إن كل الفتيات تقريباً يجدن غضاضه وعناء في تعلم القراءة والكتابة، ولكنهن يتعلمن أشغال الإبرة عن طيب خاطر دائماً؛ لأنهن منذ الطفولة يتخيلن أنفسهن كبيرات.

جـ ـ يجب تعويد الفتاة منذ الصغر على تحمل الضيق والمتاعب، وكبت نزواتها وإرغامها على الخضوع لإرادة سواها فيراعى منع الفتاة من العمل وهي أشد ما تكون رغبة فيه، ويُؤمرن بالكف عن ملهى وهن في ذروة النشوة به، وذلك حتى يتلاشى لديها جموح الرغبة ويمحى الدلال الذي يفسد أخلاق النساء.

د ـ لا يصح أن تحمل فتاة صغيرة على نمط جدتها في المعيشة، بل يجب أن تستمتع بحياتها وتتعلم الغناء والرقص وتتذوق لذات عمرها البريئة، فعن قريب سوف تفرض عليها الأيام سمة الجدة.

هـ ـ إن المرأة يجب أن تتلقى حكم أبيها وزوجها كما تتلقى أوامر الكنيسة، فتعتنق كل فتاة دين أبيها وتعتنق كل زوجة دين زوجها، وليس في استطاعة النساء استخراج قاعدة الإيمان بأنفسهن وهن بحكم تطرفهن العاطفي إما أن تكون الواحدة منهن مستهترة أو تقية، وليس المهم أن نفسر لهن الأسباب الداعية للإيمان بل الأهم أن نبسط لهن بوضوح ماذا ينبغي أن يعتقدن.. وينادي روسو بأن لا نجعل من البنات فقيهات في العلوم الإلهية ولا نعلمهن من أمور السماء إلاّ ما يفيد في الحكمة البشرية والفضيلة الدنيوية.

و ـ إن الأم بمعنى الكلمة ليست سيدة مجتمع، بل هي أشبه ما تكون

براهبة متبتلة في صومعتها، والمرأة الجاهلة السقيمة الفكر لا تصلح مربية لأطفالها ولا شريكة لزوج ذي عقل وفطنة.. ولكن روسو لا يحبذ أن تكون المرأة من النوابغ، فإن النبوغ سيخلق لها مجداً شخصياً يغنيها عن التماس الفخر في انتسابها إلى زوجها وقيامها بواجب الأم، وينادي بأن تظل كل فتاة ذات نبوغ عانساً بغير زواج طول حياتها..!!.

تحليل وتعليق

بين روسو وأفلاطون:

قرأ روسو جمهورية أفلاطون ووصفها بأنها أجمل سفر في التربية خرج من يد بشر.. وسبق أن شرحنا في الباب الأول من الكتاب منهج التربية الأفلاطوني، والآن يحق لنا أن نقارن بين المنهجين في إيجاز:

١ ـ الهدف العام من فلسفة أفلاطون كلها هو معرفة جوهر الخير الأسمى وحقائق الوجود العليا وإدراك عالم المثل الذي هو الوجود الحقيقي؛ لكن رسالة روسو التي نذر نفسه لها هي العودة إلى الطبيعة في جمالها الساحر وبساطتها الفاتنة وقانونها الفطري.

٢ ـ منهج التربية عند أفلاطون يشمل كافة الأطفال من جميع الطبقات في مراحله الأولى إلى أن يتم التمييز بينهم حسب الفطرة التي جبله عليها الخالق عز وجل.. أما منهج روسو فقد تخير تلميذاً واحداً يصاحب مؤدباً واحداً، ووضع لكل ضوابط بحيث لا يتسع عمر المربي إلّا لهُ وحده.

٣ ـ احتضن المنهج الأفلاطوني تلاميذه من المهد إلى اللحد، وخصص لكل مرحلة دستورها، وجعل ختام المنهج دراسة الفلسفة والتعمق فيها لتخريج الفلاسفة الملوك... وقد اقتصر منهج روسو على سن الرشد وجعل ختامه تعلم واجبات الحياة الزوجية وحقوق المواطن السياسية.

٤ ـ نادى أفلاطون بالعودة إلى الطبيعة، واهتم بمبادىء الصحة العامة، رفض الطب غير أن العودة إلى الطبيعة لدى روسو هدف وليست وسيلة للتأمل الفلسفي كما هي لدى أفلاطون.. وقد أهدر المنهج الأفلاطوني كرامة المرضى ودعا إلى التخلص منهم لكن روسو ـ وإن كان قد اشترط في تلميذه حسن التكوين وسلامة البنية والقوة ـ قد قال[1]:

«ولا مانع عندي أن يتكفل سواي برعاية المريض، بل إني اعترف له بالرحمة ولكن مواهبي أنا لم تخلق لتهدر في خدمة من لا يليق بها، فلا أستطيع مطلقاً أن أعلم فن الحياة لامرىء لا يفكر إلاّ في تجنب الموت».

٥ ـ جعل أفلاطون فاتحة التربية هي دعوة الطفل إلى الاعتقاد في كمال الألوهية وجلالها، والتركيز على قيم الفضيلة والعفاف. بينما جعل روسو ذلك خاتمة منهجه التربوي، ويبدأ أفلاطون بالأسطورة مع تحديد مواصفاتها ولا يسمح بها روسو إلاّ بعد الخامسة عشر من عمر الطفل.

٦ ـ المرأة في فلسفة أفلاطون صنو الرجل وكفؤه في كل شيء: أما المرأة في فلسفة روسو فهي جنس لطيف، خاضع للرجل تنحصر مهمته في القيام بواجب الأمومة والزوجية.

وقد استشعر روسو هذا الفارق فعلق عليه بقوله[2]:

«إن أفلاطون في جمهوريته يفرض على النساء تمرينات الرجال بعينها وهذا حق، فقد ألغى في دولته الأسرات الخاصة، فلم يعد يدري ماذا يصنع بالنساء ووجد نفسه مكرهاً على أن يجعل منهن رجالاً، واعتراضي ينصب على خنقه لأرق العواطف الطبيعية، مضحياً بها في سبيل عاطفة مصطنعة لا يمكن أن تبقى إلاّ على أساس مستمد من العواطف الطبيعية

(١) إميل ترجمة د. نظمي لوقا ص ٥٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠.

التي خنقت، وكأني به يتجاهل أن حُبّ الأهل والأقارب هو مبدأ حُبّ الفرد للدولة، وأن قلب الإنسان يتعلق بالوطن الكبير عن طريق تعلقه بالوطن الصغير وهو الأسرة، ونسي أن الابن الصالح وأن الزوج الصالح وأن الأب الصالح هم بعينهم من يصنعون المواطن الصالح أو يكوّنونه».

إيجابيات المنهج:

مما لا شك فيه أن تحقيق روسو عن الطفولة الأولى رائع وجميل وأن نداءه باحترام طبيعة الطفل وتزكية ميوله الفطرية لما يحمده له علماء التربية، ولعل في تدريب حواس الطفل ومنحه حرية الملاحظة والتجربة وتجشمه بنفسه سبل المعرفة ـ لأسلوباً تربوياً جديراً بأن يصون العلم وينمي القدرات العقلية ويرسخ محاسن الحرية الفكرية.

وإنا لنرى في اهتمام روسو بالتربية الرياضية، والحرف اليدوية والسباحة والأسفار ـ مبدأ طيب الآثار خصب النتائج.

وإذا كان لرأي روسو العام في المرأة عواقب سيئة، فإن تحديده لرسالتها في الأمومة والزوجية ودعوته للحفاظ عليها ـ لهو عين الصواب.

وأخيراً فإن تخوف روسو من ويلات الحضارة المادية وترفها القاتل وأخلاقها المختلة لهو نذير مبكر لكل من ألقى السمع وهو شهيد...

ويحق لنا ـ معشر المسلمين ـ أن نفاخر الدنيا بما حبانا الله به من نعمة الكتاب المبين والهدي النبوي الكريم.

ففي أهمية لبن الأم وضرورة أن تمارس المرأة واجبها الفطري في الإرضاع قال تعالى:

﴿ والوالداتُ يرضعنَ أولادَهُنَّ حولينِ كاملينِ لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضاعة ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣٢.

واحتراماً لطبيعة الطفل البريئة ثبت في الصحيحين عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يصلي وهو حامل أُمامةَ بنت زينب بنت رسول الله ﷺ لأبي العاصي بن الربيع فإذا قام حملها وإذا سجد وضعها، ولمسلم: حملها على عنقه!!.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قبّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه النبي ﷺ فقال: «من لا يرحم لا يرحم».

وفي الصحيحين أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

قدم ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلونَ صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا: لكنا والله ما نُقبّل، فقال: «أوَ أملكُ إنْ كان اللّهُ نزعَ من قلوبكم الرّحمة»؟!.

وينفرد الإسلام بأن عنايته بالطفل تبدأ قبل ميلاده حيث يحث على اختيار الأصل، وانتقاء الأرومة الطاهرة كي يتوفر للطفل بيئة صالحة وقدوة طيبة فيكون مسلكه على نمط كريم وتوجيه رشيد، قال عليه الصلاة والسلام: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» رواه البخاري.

ويتدخل الإسلام في اختيار اسم المولود ويطلب إلى والديه أن يتخيروا له الاسم الحسن، فلا تصاب نفسه بالعقد بسبب تسمية شاذة منكرة، قال عليه الصلاة والسلام: «إنّكم تُدعونَ يومَ القيامةِ بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسِنوا أسماءكم».

رواه أبو داود بإسناد حسن.

ويحتفل الإسلام بمقدم الطفل فيدعو إلى عمل وليمة في اليوم السابع من مولده يدعى لها الأصدقاء والأقارب ويأكل منها الفقراء، قال ﷺ: كل

غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى فيه ويحلق رأسه.
رواه الترمذى، وقال هذا حديث حسن صحيح.

هذا ومن العجيب المدهش حقاً أن تكون التربية الرياضية والحرف اليدوية ديناً يرد النص المقدس بالحث عليه والقيام به!!.

فالرسول ﷺ تسابق مع عائشة أم المؤمنين، وتصارع مع ركانة وشهد لعب الحبشة في أعيادهم، ومر على نفر مِنْ «أسلم» ينتضلون (يرمون على سبيل المسابقة).

فقال: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال: ﷺ «ما لكم لا ترمون»؟.

فقالوا: يا رسول الله نرمي وأنت معهم!! فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم» رواه البخاري.

وعن المقدام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«ما أكلَ أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». رواه البخاري.

«وسأل أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟.
قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله.
قال: فأي الرقاب أفضل؟.
فقال عليه السلام: أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها، قال فإن لم أفعل؟.
فقال: تعين صانعاً أو تصنع لأخرق، قال: فإن لم أفعل؟.
قال: تَدَعُ الناس من الشر فإنها صدقة تصدّقَ بها على نفسك». رواه البخارى.

ومعنى إعانة الصانع أن تمنحه أو تقرضه مبلغاً من المال ليقيم به صناعته، ومعنى الصناعة للأخرق أن تعلم صنعتك لمن لا يحسنها.

وسئلت السيدة عائشة رضي الله عنها، ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ في البيت فقالت:

«كان بشراً من البشر، يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب شاته ويعمل ما يعمل الرجل في بيته فإذا حضرت الصلاة خرج».

وأما التقشف وخشونة العيش والتعالي عن زخرف الدنيا والسمو عن متاعها الفاني، فمثلُه الأعلى المصطفى صلوات الله عليه وها هي أم المؤمنين عائشة تحدثنا عن طعام بيت النبوة قالت:

«إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فسألها ابن أختها عروة بن الزبير: يا خالة ما كان يعيشكم؟.

قالت: «الأسودان التمر والماء». رواه البخارى.

ومما تجدر ملاحظته أن ذلك ليس تحريماً لطيبات الحياة، وإنما المقصود الأسمى هو أن تربى عزائم الرجال على الجلَد ومواجهة الصعاب التي لا تخلو منها الحياة ولا يصفو بسببها مورد، بالإضافة إلى أن يكون القلب غير مكترث بها أو متهافت عليها، قال تعالى: ﴿ قُلْ منْ حرَّمَ زينةَ اللَّهِ التي أخرجَ لعباده والطَّيباتِ من الرزقِ قلْ هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ﴾[1].

سلبيات المنهج:

اتفقت كلمة الباحثين على أن في منهج روسو التربوي نقائص تبعده عن مهمة الإصلاح، وسذاجة تنأى به عن محاولة التطبيق، ويجدر بنا أن نشير إلى أهم تلك المآخذ:

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٢.

١ ـ التربيـة السلبيـة:

إنّ طفلاً يبلغ الثانية عشرة من عمره ولا يزال في نعاس العقل هو بلا ريب متخلف عقلياً.

ونحن لا نستطيع أن نفهم كيف أن شاباً ناهز العشرين دون أن يقوم بدور إيجابي في الحياة، ومن غير أن يخوض غمار التجربة الخلقية، ويشارك في الظاهرة الاجتماعية تأثيراً وتأثراً: كيف يمكنه بعد هذه السن أن يواجه الحياة بسرّائها وضرّائها؟!.

إن المنهج الإسلامى يبدأ أولى توجهياته العمليـة للطفل وهـو في السابعة من عمره قال الرسول ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين وأضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين». رواه أبو داود.

والأمر بالصلاة يتضمن عدة إشارات إلى جوانب هـامة في حيـاة الطفل التربوية وهي:

١ ـ الطهارة والنظافة، حيث تسبق الصلاة ولا تصح بدونها.

٢ ـ الإيمان والفضائل، حيث يرغب الطفل إلى الله ويقف على قيم الأخلاق والتدين.

٣ ـ الشخصية الاجتماعية، حيث يشارك الطفل في الجُمـع والجماعـات والأعياد، ويتعرف إلى الناس في المساجد.

وقد أثبت الواقع والتاريخ أن الشاب قبل العشرين يمكن أن يتحمل عبء الحياة، ويتكفل بنفسه وأسرته ويؤثر في مجرى الأحداث بل إنه ليُتخذ مثلاً يقتدى به ويقتفى أثره.

وإليك طائفة من الشباب أسلموا في العهد السري للإسلام، وكانوا فيه من السابقين[1]:

١ ـ علي بن أبي طالب: أول الشباب إسلاماً أسلم وهو ابن ثمان من

(١) من إحصاء لمجلة الوعي الإسلامي العدد ٧٧.

السنين وأستشهد سنة أربعين من الهجرة.

٢ ـ الزبير بن العوام: أسلم وهو ابن ثمان من السنين واستشهد في واقعة الجمل سنة ست وثلاثين.

٣ ـ طلحة بن عبيد الله: أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة واستشهد في واقعة الجمل وله أربع وستون سنة.

٤ ـ الأرقم بن أبي الأرقم: أسلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ومات سنة خمس وخمسين من الهجرة.

٥ ـ عبد الله بن مسعود: أسلم وقد قارب البلوغ ومات سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.

٦ ـ سعيد بن زيد: أسلم وهو دون العشرين ومات اثنتين وخمسين من الهجرة.

٧ ـ سعد بن أبي وقاص: أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ومات سنة أربع وخمسين من الهجرة.

٨ ـ مسعود بن ربيعة: أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ومات سنة ثلاثين من الهجرة.

٩ ـ جعفر بن أبي طالب: أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة واشتهد في مؤتة.

١٠ ـ صهيب الرومي: أسلم وهو دون العشرين ومات سنة ثمان وثلاثين من الهجرة.

١١ ـ زيد بن حارثة: أسلم في حدود العشرين ومات وهو ابن خمس وخمسين في غزوة مؤتة.

١٢ ـ عبد الله بن مظعون: أسلم ابن سبعة عشر عاماً ومات سنة ثلاثين من الهجرة.

* * *

٢ ـ الدين الطبيعي:

استهدف روسو من مذهبه في الدين الطبيعي أمرين:

أ ـ المحافظة على مدارك الطفل البسيطة من غموض العقائد.

ب ـ إبراز الجانب الإنساني من الدين.

وفي الحق أن روسو قد وقع تحت تأثير تجربة خاصة، هي معرفته عن قرب بمعميات اللاهوت الكنسي وانحراف رجاله وخداعهم لجماهير النصارى..

وتلك تجربة لا تقبل التكرار مع الإسلام لأنه دين الفطرة، وتمتاز عقائده بالنضارة وسهولة المأخذ ويسر متناول قال تعالى:

﴿ ولقدْ يسَّرنا القرآنَ للذّكر فهلْ مِن مدّكر ﴾[1].

والصورة الكاملة الألوهية في بيان معجز يحفظه جميع أطفال المسلمين هي قوله سبحانه: ﴿ قُلْ هوَ اللَّهُ أحد، الله الصمّد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفواً أحد ﴾.

وأما عن الجانب الإنساني في الإسلام فحدّث ولا حرج، وجُماعه قوله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البّر والتّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾[2].

والبر والتقوى في المفهوم القرآني عنوان عام على فضائل النفس والاعتقاد والأخلاق ومكارم المعاملة.

ومما يجب التنبيه عليه أن دعوى وحدة الأديان كلمة حق يُراد بها باطل، ولتوضيح ذلك نقول:

تتابعت رسالات الله تعالى إلى بني الإنسان منذ وطئت أقدامهم هذا الكوكب الأرضي، تثير فيهم حركة العقل الراشد والفطرة السليمة، وتفجر ينابيع الخير في الإنسان والحياة وصولاً بهم إلى قيمة الإنسان وكرامته وحقيقة الحياة وغايتها، وعظمة الوجود وحكمته، كما قال تعالى: ﴿ فأقِمْ وَجْهكَ للدّين حنيفاً فِطرَةَ اللّهِ التي فطرَ النّاسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ اللّهِ

(١) سورة القمر، آية: ١٧.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

ذلِكَ الدّينُ القيّم ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمون ﴾[1].

ورسالات الله في جوهرها واحدة، كل رسالة تصدق ما سبقها في حال نقائه وصفائه، ثم تتميز بملامح خاصة تبعاً للبيئة التي بها نشأت والقوم الذين تدعوهم، وهكذا إلى أن تكاملت شرائع الله وبلغت الإنسانية رشدها فكانت رسالة محمد ﷺ الذي ﴿ جاءَ بالحقِّ وَصَدَّقَ المُرسَلينَ ﴾[2] خاتمة لمطاف الرسالات وكان القرآن الكريم ﴿ مُصدِّقاً لِما بينَ يديهِ من الكتابِ ومهيمناً عليه ﴾[3].

فإدّعاء الإيمان برسول مع الكفر برسول سابق أو لاحق هو إدعاء خادع أو مخادع، وهو إنكار للمشكاة الواحدة التي انبثقت منها الرسالات جميعاً، وهو في الوقت نفسه محاولة للتقوقع والانطواء، وإعاقة للركب الإنساني عن استمراره وتجدده، فرسالات الله تمثل أطوار الإنسانية في رشدها الإيماني والعقلي، فما يصلح لفترة لا يستمر لأخرى، بل يتجدد لها ما يناسبها، فرسالة موسى عليه السلام حرّمت أشياء كثيرة على بني إسرائيل قال تعالى: ﴿ فبِظُلم من الذين هادوا حرَّمْنا عليهم طيبات أحلّت لهم ﴾[4].

ثم جاء عيسى عليه السلام منادياً في قومه أنه أتى: ﴿ مُصدِّقاً لما بينَ يدي من التوراةِ ولأحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّم عليكم ﴾[5].

وعلى حين فترة من الرسل أشرقت الأرض بنور ربّها وتلقى محمد ﷺ الكتاب: ﴿ يُحِلُّ لهم الطّيباتِ ويحرِّم عليهم الخبائثَ ويضعُ عنهم

---

(١) سورة الروم، آية: ٣٠.
(٢) سورة الصافات، آية: ٣٧.
(٣) سورة المائدة، آية: ٤٨.
(٤) سورة النساء، آية: ١٦٠.
(٥) سورة آل عمران، آية: ٥٠.

إصْرَهُم والأغلالَ التي كانَتْ عليهم ﴾[1].

ومن هنا تكاملت للإسلام خصائص عمومه وشموله، فانطلق من الإقليمية المحدودة إلى العالمية قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إلاّ ذكر للعَالَمِين ﴾ وتلك آية نزلت في سورة القلم وهي الثانية نزولاً بعد سورة العلق.

وزاوج الإسلام بين المادة والروح بقوله سبحانه: ﴿ وابتغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تنسَ نَصِيبكَ مِنَ الدُّنْيَا وأحسنْ كما أحسنَ اللَّهُ إليكَ ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ ﴾[2].

والتقى هتاف الدين وصوت العقيدة، بواقعية الإنسان وملابسات ظروفه فقال: ﴿ لا يكلّفُ اللَّهُ نفساً إلاّ وُسعها ﴾[3].

وقضى على الخُرافاتِ والأوهَامِ والظُنونِ فقال: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا ليسَ لَكَ بِهِ علْم إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنه مسؤولاً ﴾[4].

ومحا كل عصبية وعنصرية وألف بين شتات الإنسانية فقال: ﴿ يا أيُّها النَّاس إنَّا خلقناكم منْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند اللَّهِ أتقاكم ﴾[5].

وأتى الإسلام بشريعة تواجه كل حياة الناس، ترسم لها المنهج القويم وتقودها إلى حيث القيمة والقمة فقال سبحانه: ﴿ إنَّ هَذا القُرآنَ يَهدي لِلَّتي هيَ أقومُ ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.
(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.
(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٦.
(٥) سورة الحجرات، آية: ١٣.
(٦) سورة الإسراء، آية: ٩.

٣ ـ حقوق المرأة:

ألغى روسو أهلية المرأة وأهدر كرامتها وجعلها على هامش الحياة، حيث حرمها من التعلم وأكرهها على العقيدة وسلبها إدارة شؤون حياتها وأبقاها دمية يستمتع بها الرجل.

والمعروف أن روسو عاشق دنف تقلب في أحضان نساء كثيرات من مختلف الطبقات، ويسرُّ المغرم الهائم أن يمتلك المرأة، ويجد في جهلها وضعفها وسذاجتها ما يجعلها رقيقة مطواعة.

وإذا استعرضنا تاريخ المرأة قديماً وحديثاً لن نجد فلسفة أو مذهباً اجتماعياً أنصف المرأة وحررها كما فعل الإسلام.

فالمرأة في فلسفة الهند عائق عن الخلاص، وحقها في الحياة ينتهي بانتهاء أجل الزوج، تحرق عند وفاته، ولا تعيش بعده إلا حاقت بها اللعنة الأبدية.

والعرب في الجاهلية وأدوا البنات وتوارثوا المرأة واتخذوها بضاعة مزجاة، وعاش الناس في أوروبا أزمنة يرون المرأة تسير وعلى فمها وموضع العفة منها أقفال حديدية.

وما زالت المرأة الغربية إلى اليوم تنسب إلى زوجها، ولا تملك أهلية التصرف في الأموال بغير إذن زوجها، وكل حريتها المزعومة محصورة في دائرة الانحلال والفاحشة.

إنَّ الإسلام أحيى المرأة، وحملها المسؤولية كاملة، ومنحها حرية التصرف في كافة الحقوق المدنية، قال تعالى: ﴿ فاستجابَ لهم ربُّهم أنِّي لا أُضيعَ عملَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَللرِّجالِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩٥.

وللنّساء نصيب مما ترك الوالدانِ والأقربونَ مما قلَّ منهُ أو كثُر نصيباً مفروضاً ﴾[1].

وقال ﷺ:

«لا تُنكحُ الأيّم حتى تُستأمَرَ ولاَ تُنكحُ البكرُ حَتى تُستأذَنَ» رواهُ البخاري وروى أحمد والنسائي بإسنادهما أنَّ فتاة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: «إن أبي زوّجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته فجعل الأمر إليها فقالت: قد أجزت ما صنع أبي ولكنّي أردت أن تعلم النساء أنْ ليس للآباء من الأمر شيء».

والإسلام جمع بين الرجل والمرأة في ساحة المساجد يتلقون العلم ويتلون كتاب الله، قال ﷺ:

«تخرج العواتق وذوات الخدور والحيَّض وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين» رواه البخاري ـ والعاتق من بلغت الحلم واستحقت الزواج أو الكريمة على أهلها.

والأدب الإسلامي في خروج المرأة يحتم عليها العفة والاحتشام ووقار الزي وكرامة العرض قال تعالى:

﴿ يا أيُّها النَّبي قُل لأزواجِكَ وبناتِكَ ونساءِ المؤمنين يُدنينَ عليهنَّ مِنْ جلابيبهنَّ ذلكَ أدنى أنْ يُعرفَنَّ فلا يؤذينَ وكان اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[2].

هذا ولا يتفق منهج روسو في تربية الفتاة مع الإسلام، إلاّ في تحديده لرسالتها وحثه على تحملها عناء الأمومة وواجب الزوجية.

فالأمة أحوج ما تكون إلى وفاء الزوجة وحنان الأم وطهارة الطفل وتلك مهمة خطيرة لا يحسن القيام بها غير امرأة مؤمنة قانتة حافظة للغيب بما حفظ الله ولا تبدد قواها في غير مملكتها.

---

(١) سورة النساء، آية: ٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

وإن الأم التي تولي وجهها شطر المبادىء والمثل، وتغرس في بنيها روح الإيثار والتضحية وتفجر فيهم ينابيع الخير ـ هي بحق عبقرية فذة وذات بطولة وفداء، لا تقل عن مواقف الرجولة في ساحة الوغى.

وقد امتدح الرسول ﷺ نساء قريش بقوله:

«خير نساء ركبن الإبل صالحو نساء قريش أحناه على الولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده» رواه البخاري.

وقدمت أسماء بنت يزيد الأنصارية والتي لُقّبت بخطيبة نساء العرب إلى الرسول ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله أنا وفدة النساء إليك، إنَّ الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فُضِّلتم علينا بالجمع والجماعات وشهودِ الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أولادكم وأموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟!.

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها؟.

فقالوا: يا رسول الله ما ظننا ان امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها فقال: «افهمي ايتها المرأة وأعلمي من خلفكِ من النساء أنَّ حُسنَ تَبَعّلِ المرأةِ لزوجها يعدِلُ ذلك كلَّه» رواه البزار والطبراني بنحوه.

وبعد ـ تلك هي أهم المآخذ التي تحتاج إلى رأي الإسلام، لكن هناك مآخذ أخرى لعلماء التربية مثل انتقاصه لقيمة الكتاب العلمي واستغنائه عن الدراسة النظرية، وكذلك استحالة تعيين أستاذ لكل تلميذ، وتعذر المصاحبة التامة بينهما إلى سن الرشد وغير ذلك.

ولعلنا لا ننتظر من روسو منهجاً تربوياً قويماً فنشأته الأولى مَثل لسوء التربية، وحياته ملأى بالبؤس والنقائص، وقد تجرد من أبسط معاني الحيوانية، فألقى بأولاده الخمسة في ملجأ اللقطاء، وفشل في تربية أطفال أحد النبلاء.

وقد علق أحد الباحثين بقوله[1]:

«إن الطريقة صناعية بحتة لا تقوم إلّا كما تقوم قصور الوهم، وهي من سهولة الفساد بحيث لا يمكن اعتبارها إلّا تصوراً جنونياً ورواية وهمية».

ومع ذلك فنحن لا ننكر عبقريته ونبوغه وسبق أن تكلمنا عن إيجابيات المنهج.

مبادىء النظرية السياسية

كيف انتقل الإنسان من الحرية الطبيعية إلى الحرية القانونية؟.

ما مصدر القانون وما هدفه العام؟.

هل يمارس الشعب سيادته بنفسه أو عن طريق ممثليه؟.

ما هو أفضل شكل للحكم؟ وهل يتلاءم شكل ما مع كافة الشعوب؟.

هل للدولة سلطة على الناس في عقائدهم؟.

أجاب جان جاك روسو على تلك الأسئلة في كتابه «العقد الاجتماعي» الذي وضعه لبيان المبادىء الحقيقية للقانون السياسي في نظره، وإقامة الدولة المثلى على أساس منه.

وها نحن نقدم عرضاً موجزاً لتلك «الدولة المثلى في مسارها التاريخي وواقعها السياسي وأهدافها العامة.

---

(١) نقله د. محمد حسين هيكل في كتاب جان جاك روسو ص ٢٩٩.

أ ـ الميثاق الاجتماعي:

ولد الإنسان حراً وإذا كان هناك بعض الناس عبيداً، فالقوة هى التي جعلتهم عبيداً والجبن هو الذي أبقاهم كذلك.

ومهما بلغ الإنسان من القوة فإنه لا يمكن مطلقاً أن يبلغ فيها حداً يبقيه سيداً باستمرار، إلّا إذا حول القوة إلى حق، والطاعة إلى واجب ولما كانت القوة لا تنتج حقاً فإن الأساس الوحيد الباقي للسلطة الشرعية في المجتمعات البشرية هو الاتفاق.

وأقدم المجتمعات ـ في نظر روسو ـ هو مجتمع الأسرة فالأبناء يظلون مرتبطين بأبيهم طالما أحسوا بحاجتهم إليه، وبمجرد أن تنتهي هذه الحاجة تنحل هذه الرابطة الطبيعية ويعود الأبناء والأب إلى حالة من الاستقلال المتساوي. وإذا ظلت الرابطة قائمة فإنها لا تعود أمراً تفرضه الطبيعة ولكنها تصبح اختياراً مقصوداً ولا تبقى الأسرة إلّا على أساس من الاتفاق وحده.

ويعتبر روسو الأسرة النموذج الأول لكل الجماعات السياسية فالحاكم هو ممثل الأب، والشعب هم أبناؤه، والجميع ـ لما كانوا مولودين أحراراً ـ لا يتنازلون عن حريتهم إلّا لمصلحتهم فقط.

ولا توجد لدى البشر وسيلة يستطيعون بها الإبقاء على أنفسهم سوى الانضمام بعضهم إلى بعض وتوحيد قواهم بطريقة تمكنهم من الوقوف في وجه أية مقاومة، ويتحقق ذلك بالتنازل الكامل من جانب كل واحد عن جميع حقوقه للمجموع ويتلخص الاتفاق فيما يلى:

كل واحد منا يسهم في المجموع بشخصه وكل ما لديه من قدرة تحت التوجيه الأعلى للإرادة العامة ويلتقي كذلك في جسد المجموع كل عنصر بوصفه جزءاً لا يتجزأ من الكل.

وبمجرد عقد الاتحاد يتولد عنه جسد معنوي سمي فيما مضى

«مدينة»، ويسمى الآن «جمهورية ودولة»، ويطلق على الأعضاء في مجموعهم اسم «الشعب»، ويطلق عليهم أفراداً «مواطنين» في حدود مشاركتهم في السلطة السيادية «ورعايا» باعتبارهم خاضعين لقانون الدولة.

وترتب على الانتقال من حال الطبيعة إلى حال المدينة ـ تغيير جوهري في الفرد فقد أحلّ العدالة محل الغريزة في سلوكه، وأضفى على تصرفاته عنصراً أخلاقياً كان يعوزه من قبل.

ورغم أن الإنسان قد يجد نفسه محروماً من عدة مزايا كان يتمتع بها في حال الطبيعة: مثل حقه غير المحدود في الاستيلاء على ما يريد وما يستطيع الحصول عليه ـ إلاّ أنه يدرك أنه حصل على مزايا أخرى ذات قيمة أكبر، فستنمو ملكاته، ويتسع أفقه، وتصبح مشاعره أنبل، وتسمو روحه إلى حد يجعله يبارك اليوم الذي حرره إلى الأبد، وحوله من حيوان بليد محدود الأفق إلى مخلوق ذكي وإنسان.

ب ـ السيادة:

الشعب هو صاحب السيادة، وكل فرد عليه التزام مزدوج: بوصفه عضواً في المجموع صاحب السيادة قبل الأفراد من المواطنين، وبوصفه مواطناً عضواً في الدولة قبل المجموع صاحب السيادة. وبناء عليه فالسلطة صاحبة السيادة لا تحتاج إلى تقديم ضمان إلى رعاياها حيث إنه من المستحيل أن يهدف الجسد إلى إيذاء أعضائه، ولكن لا ينطبق نفس الشيء على علاقة الرعية بصاحب السيادة، فلا يوجد أي ضمان على أن الفرد سيقوم بتعهده قبل صاحب السيادة إلاّ إذا توفرت الوسائل لتأكيد ولائه.

ولكيلا يصير الميثاق الاجتماعي مجرد صيغ جوفاء فإنه يشتمل ضمناً على مبدأ يضفي على المجموع قوة وهو:

«كل من يرفض طاعة الإرادة العامة لا بد أن يقوم المجموع، بإكراهه على الخضوع».

ويرى روسو أن ذلك الإكراه لا يعني أكثر من أنه سيرغم على الحرية، حيث إن الحرية هي الوضع الذي يجعل كل مواطن جزءاً من وطنه يحظى بحمايته ويمده بالقوة اللازمة.

ويحدد روسو الأصول التي تقوم عليها السيادة وهي:

١ ـ السيادة غير قابلة للتنازل، فالشعب سيد نفسه ولا يعبر عنه غيره لأن الإرادة لا يمكن نقلها فقد يستطيع صاحب السيادة أن يقول: أريد الآن ما يريده هذا الشخص أو ذاك، ولكنه لا يستطيع أن يقول: إن ما سيريده هذا الشخص غداً سأريده أنا أيضاً، فمن السخف أن تقيد الإرادة نفسها بالمستقبل، أو بما يتعارض مع صالح صاحبها.

٢ ـ لا يوجد أي قانون أساسي يعتبر ملزماً للشعب كله في مجموعه، ومن ثم فإنه مما يتعارض وطبيعة الجسد السياسي أن يفرض صاحب السيادة على نفسه قانوناً لا يستطيع أن ينقضه فالقانون يعدله قانون، والدستور يبطله دستور.

٣ ـ يستمد صاحب السيادة كيانه من قدسية الميثاق الاجتماعي فقط، وعلى هذا لا يمكن أن يلزم نفسه، بما يخرج عن العقد الأصلي، فليس له أن يتنازل عن جزء من نفسه أو أن يخضع ذاته لصاحب سيادة آخر.

٤ ـ السيادة لا تتجزأ فهي عامة للحرب والسلم، للتشريع والتنفيذ، ومهيمنة على القوانين المنظمة لتلك الأحوال.

٥ ـ الإرادة العامة على صواب دائماً، وتهدف إلى النفع العام باستمرار ولكن لا ينبغي عليه أن مداولات الشعب تتسم دائماً بهذا السداد فإن المرء يريد خيره باستمرار ولكنه قد لا يراه هائماً، والشعب لا يمكن أن يرشى ولكنه يضلل في كثير من الأحيان.

هذا وقد رتب روسو على تلك الأصول مجموعة اتجاهات في الحكم هي:

١ ـ إن نواب الشعب ليسوا ممثليه، إنهم ليسوا سوى وكلاء مكلفين لا يستطيعون البت في شيء بصورة نهائية، وكل قانون لم يصدق عليه الشعب بشخصه فهو باطل.

٢ ـ من الضروري ألاّ تكون هناك أحزاب وجماعات في الدولة، لأن إرادة كل فريق تكون خاصة به، وتنحصر الأصوات في عدد الجماعات فقط، إذ لكل فريق اتجاه واحد ومتى بلغت إحدى هذه الجماعات حداً يمكنها من اكتساح الجماعات الأخرى فإن الرأي السائد لن يكون سوى رأي خاص، وعندئذ لا يكون للإرادة العامة دور مطلقاً. فلندع لكل مواطن رأيه الخاص به وحده أو لنكثر من الجماعات بقدر الإمكان فإن الإرادة العامة الصائبة تنتج من العدد الكثير من الخلافات.

٣ ـ إن الهدف من المعاهدة الاجتماعية هو المحافظة على المتعاقدين، ومن يريد الهدف يريد الوسيلة أيضاً، والوسائل هنا تصحبها بعض المخاطر. فعندما يقول الأمير للمواطن إن سلامة الدولة تتطلب أن تموت، يجب عليه أن يموت ما دام أنه لم يعش في سلامة حتى الآن إلاّ على هذا الشرط.

ومن جهة أخرى فإن من يعتدي على القانون الاجتماعي يصير بمقتضى اعتدائه متمرداً خائناً لوطنه، ومن ثم فإن المحافظة على الدولة لا تتفق مع المحافظة عليه ولا مندوحة من أن يهلك أحدهما، فيجب التخلص من المجرم بالنفي؛ لأنه نقض الميثاق أو الإعدام بوصفه عدواً لا عب.

جـ ـ القانون:

لقد منحنا بالميثاق الاجتماعي كياناً للجسد السياسي، ويبقى الآن أن نمنحه الحركة والإرادة بواسطة التشريع. وكل عدالة مصدرها الله فهو وحده منبعها، ولو أننا عرفنا كيف نتلقاها من السماء مباشرة لما كانت بنا حاجة إلى حكومة أو قانون، وإذا نظرنا إلى الأمر من ناحية البشرية فقط لوجدنا أن قواعد العدل لا أثر لها بين الناس دون جزاء طبيعي.

والقانون هو القواعد التي يضعها الشعب كله لتطبق على الشعب كله، إذ إن هدف القانون عام دائماً فهو يتناول الرعايا في مجموعهم والتصرفات مجردة ومن ثم يستطيع القانون أن يقرر امتيازات، ولكنه لا يستطيع أن يمنحها إلى شخص بالاسم، وللقانون أن ينشىء طبقات وأن يحدد الصفات التي ينتمي على أساسها الأفراد لكل طبقة، ولكنه لا يستطيع أن يحدد انتماء أشخاص بذاتهم إلى أي منها، ويستطيع أن يقرر أن صورة الحكم ملكية وراثية ولكنه لا يستطيع انتخاب ملك، أو أن يعين عائلة ملكية. فالقانون يجمع بين عموم الإرادة وعموم الموضوع.

ويطلق روسو اسم الجمهورية على كل دولة يحكمها القانون أياً كانت صورة الحكم فيها، ويفرق بين المشرع والأمير، فالأول هو المهندس الذي يبتكر الآلة، والثاني هو العامل الذي يريدها، ويضفي روسو على المشرع عبقرية خاصة ومهمة فوق طاقة البشر، ويفصل فصلاً تاماً بين التشريع والحكم فمن يحكم الناس يجب ألاّ يحكم القوانين، ومن يحكم القوانين يجب ألاّ يحكم الناس وإلاّ كانت قوانينه خادمة لأهوائه.

ونظراً لأن هناك أفكاراً كثيرة لا يمكن ترجمتها إلى لغة يفهمها عامة الشعب، ومن الصعوبة إقناعهم بمزايا تعود عليهم من حرمان تفرضه القوانين العادلة، وليس من الحكمة استعمال القوة لإكراه كل فرد على تذوق المبادىء السليمة والقواعد الأساسية لمصلحة الدولة، فإن روسو يرى أن نلجأ إلى سلطة من نوع آخر تقود بلا عنف وتقنع بلا حجة ـ هي التجاء المشرعين إلى السماء ونسبة قوانينهم إلى الله.

ولكن لا يستطيع كل إنسان أن يجعل الآلهة تتكلم ولا أن يجعل الناس تصدقه عندما يدعي أنه يتحدث باسمها فيجب أن تكون روح المشرع العظيمة وعقله السامي دليلاً على رسالته.

وبناء على هذه النظرة وذلك الاتجاه في فهم النبوة ـ تحظى الشريعة

الإسلامية بإكبار روسو وإجلاله ويقول[1]:

«والشريعة الإسلامية التي حكمت نصف العالم مدى عشرة قرون ما برحت حتى اليوم تعلن عن عظمة أولئك الذين وضعوها، وقد لا يرى فيهم أولئك الذين أعمتهم الكبرياء الناجمة عن الفلسفة، أو روح التحيز العمياء سوى دجالين حسني الحظ ولكن السياسة الحسنة تعجب في أنظمتهم بتلك العبقرية العظيمة».

هذا وقد حدد روسو للمشرع أموراً يجب مراعاتها هي:

١ ـ هناك للأمم ـ كما للأفراد ـ فترة شباب أو فترة نضج يجب أن تبلغها قبل أن تخضع للقوانين وإذا تعجلنا هذا النضج ضاع مجهودنا بيد أنه ليس من اليسير دائماً تحديد نضج الشعوب فهناك شعوب صالحة للنظام بمجرد نشأتها، وأخرى لا تصلح له إلّا بعد عشرة قرون...

٢ ـ كما وضعت الطبيعة حداً لما يبلغه الرجل الفاضل من حجم، فإذا زاد عنه أو قل يكون إما عملاقاً أو قزماً، فكذلك هناك حدود للدول إذا تجاوزتها لا تستطيع الحصول على أفضل دستور لها بحيث لا تكون في حجمها أكبر مما يتفق وحسن الإدارة أو أصغر مما ينبغي حتى تدبر أمورها بنفسها.

٣ ـ هدف كل نظام تشريعي هو الحرية والمساواة، والمراد بالحرية: الحرية المدنية التي يحميها الميثاق الاجتماعي وينظمها القانون وتؤيدها الإرادة العامة، وينبغي ألّا نفهم من لفظ المساواة التساوي الكامل في درجات القوة والثراء ولكنه يعني فيما يتعلق بالقوة أن تسمو على العنف وأن تمارس على أساس القانون، أما فيما يتعلق بالثروة فتعني ألّا يبلغ مواطن من الفقر ما يدفعه إلى بيع نفسه.

٤ ـ إن ما يجعل أي نظام للدولة متيناً باقياً هو أن يأخذ في الاعتبار أن تتفق

(١) العقد الاجتماعي، ترجمة عبد الكريم أحمد ص ١٢٥.

القوانين مع الأوضاع الطبيعية وتتلاءم مع طبائع الشعب وظروفه في المناخ والتربة والسكان.

ولهذا كان الدين هو الهدف الرئيسي بالنسبة لليهود في القديم وللعرب في الوقت الحاضر وكانت الآداب هدف الاثينيين، أما أهل قرطاجنة وصور فكان هدفهم التجارة، وأهل رودس الملاحة وأهل روما الفضيلة.

وبعد ذلك قسم روسو القانون إلى:

١ ـ قانون سياسي أو أساسي وهو الذي ينظم علاقة الجسد كله بنفسه، وتأثيره في ذاته أي العلاقة بين الشعب والدولة.

٢ ـ قانون مدني، وهو الذي يتعلق بصلات المواطنين بعضهم ببعض.

٣ ـ قانون جنائي وهو الذي ينظم العلاقة بين الإنسان والقانون في شكل عقوبات تترتب على عدم طاعة القانونين السابقين.

٤ ـ العرف والعادة والرأي العام، وهو قانون لا ينقش على الألواح ولكن في قلوب المواطنين، وهو الذي يعيد الحياة إلى القوانين الأخرى إذا هرمت، ويصون للشعب روح نظامه، ويتوقف عليه نجاح كل القوانين، ويستلهمه المشرع.

* * *

د ـ الحكومة:

الجسد السياسي يحركه باعثان: واحد تحت اسم السلطة التشريعية والآخر تحت اسم السلطة التنفيذية، والأولى من اختصاص الشعب والثانية مهمة الحكومة التي يعهد إليها بتنفيذ القوانين وصيانة الحرية المدنية والسياسية..

ويطلق روسو اسم الحكم، أو الإدارة العليا على الممارسة المشروعة للسلطة التنفيذية، واسم الأمير أو الحاكم على الشخص أو الهيئة المكلفة بهذه الإدارة.

ويعتقد روسو أنه كلما زاد عدد الموظفين كانت الحكومة أضعف، وأن أنشط الحكومات هي حكومة الشخص الواحد، ويقسم الحومات إلى:

١ ـ ديمقراطية:

وهي بالمعنى الدقيق لم توجد ولن توجد؛ لأن مما يتعارض مع النظام الطبيعي أن يحكم الكثيرون ويخضع القليلون ولا يستطيع الإنسان أن يتصور الشعب منعقداً باستمرار للانقطاع للشؤون العامة.

والحكم الديمقراطي يتطلب أشياء يصعب جمعها، فهو يتطلب:

أولاً: دولة صغيرة جداً يسهل فيها جمع الشعب كما يسهل على كل مواطن أنت يعرف الباقين.

وثانياً: يتطلب بساطة كبيرة في الأوضاع، تحول دون تشعب الأمور والخوض في المسائل الشائكة.

وثالثاً: يتطلب الأمر قدراً كبيراً من المساواة في المراتب والثراء، وألاّ يوجد ترف؛ لأنه يفسد الأغنياء بحيازتهم له والفقراء برغبتهم فيه.

ويرى روسو أنه ليس هناك حكومة معرضة للحروب الأهلية، والاضطرابات الداخلية، أكثر من الحكومة الديمقراطية، أو الشعبية لأنه لا توجد حكومة تجنح بشدة واستمرار إلى تغيير صورتها مثل الحكومة الديمقراطية، ولا توجد حكومة تحتاج إلى قدر كبير من اليقظة والشجاعة للمحافظة عليها، مثلها... ويقول روسو متندراً:

«لو كان هناك شعب من الآلهة لحكم نفسه بطريقة ديمقراطية فهذا النوع من الحكم الذي بلغ حد الكمال لا يصلح للبشر..!!».

* * *

٢ ـ ارستقراطية:

وهي حكم القلة للكثرة وقد كانت المجتمعات الأولى تحكم ارستقراطياً فكان رؤوساء العائلات يتداولون سوياً في الشؤون العامة وكان

الشبان يحنون رؤوسهم لسلطة التجربة.. ولذا وجدت أسماء مثل: الكهنة، والشيوخ، والكبار، والزعماء.

ولكن كلما حل التفاوت الناجم عن النظم محل التفاوت الطبيعي صار الثراء أو القوة مفضلين على السن، وأصبحت الأرستقراطية انتخابية، وعندما انتقلت القوة من الآباء إلى الأبناء مع الممتلكات بحيث صارت بعض الأسرات أرستقراطية، تحولت الحكومة إلى أرستقراطية وراثية...

ومن ثم أوجدت ثلاثة أنواع من الأرستقراطية:

١ ـ طبيعية...

٢ ـ انتخابية....

٣ ـ وراثية...

والأولى لا تصلح إلاّ لشعوب بدائية، والأخيرة أسوأ الحكومات جميعاً والثانية أفضلها، وهي الأرستقراطية بالمعنى الحقيقي؛ حيث يحكم أرشد الناس لمصلحة الجماهير إذ الانتخاب لا يكون إلاّ على أساس الصلاح والتجربة ومؤهلات الحكم الناجح..

والدولة المناسبة لهذا الحكم هي المتوسطة الحجم والتي يمتاز أغنياؤها بالاعتدال وفقراؤها بالقناعة..

* * *

٣ ـ ملكية:

تناول روسو الحكومة ـ فيما سبق ـ باعتبارها شخصاً معنوياً وجماعياً أميناً على السلطة التنفيذية للدولة.

أما الآن فهو يتناول هذه السلطة في يد رجل حقيقي له وحده الحق في استعمالها طبقاً للقوانين ويسمى الملك.

ويذهب روسو إلى أن مصلحة الملوك الأولى هي أن يكون الشعب ضعيفاً بائساً لا يستطيع مقاومتهم، ويرى في الملكية عيباً جوهرياً لا محيص

عنه هو أن صوت الشعب لا يصل إلى الملك: إلاّ عن طريق الإمّعات التافهين المنافقين الذي يشوهون الحقيقة، ويسيئون التعبير عنها.

وأبرز مساوىء حكم الفرد الواحد هو عدم استمرار الحاكم، فعندما يموت الملك يتطلب الأمر ملكاً آخر، ويترك الانتخاب فترات انقطاع خطيرة وعاصفة، هذا إن كانت الملكية انتخابية، أما إذا كانت وراثية فهي تقذف إلى الحكم بأطفال وأشرار وبلهاء.

والحكم الملكي - على العموم - يعوزه التناسق، فهو لا يستمر فترة طويلة على سياسة واحدة تبعاً لاختلاف طبائع الوزراء الذين يتولون الحكم باسم الملوك، مما يؤدي إلى تأرجح الدولة بلا انقطاع بين مجموعة متباينة من المبادىء والأهداف.

* * *

وإذا سألنا روسو عن أي صورة من تلك الصور تناسب الشعب، نجده يذهب إلى رأي «منتسكيو»[1]: «القائل بأن الحرية ثمرة لا تنبت في جميع الأجواء، وليست في متناول جميع الشعوب، وأن هناك مجموعة من ظروف البيئة والطقس ونوعية البشر يمكننا على ضوئها أن نحدّد أفضل صور الحكم لأي بلد بذاته.

فالمناطق المجدبة التي لا يعطي فيها العمل من عائد سوى الضروري، يستحيل قيام أي مجمع سياسي فيها، والمناطق التي تكون وافرة الإنتاج مقابل عمل قليل تحكم حكماً ملكياً حتى يستهلك ترف الأمراء الزيادة في فائض الرعايا، لأنه من الأفضل أن تمتص الحكومات هذه الزيادة بدلاً من أن يبعثرها الأفراد.

والاستبداد يلائم الأجواء الحارة، والحكم السياسي الصالح يلائم

(١) فيلسوف فرنسي عاش في الفترة (١٦٨٠ - ١٧٥٥) وله مؤلفات عدة في الفكر السياسي والنقد الاجتماعي أشهرها «روح القوانين».

الدول المتوسطة، والبلاد الأقل سكاناً أكثر صلاحية للطغيان فإن الضواري لا تحكم إلاّ في الصحراوات».

ويعتبر روسو السؤال عن أصلح أنواع الحكم جميعاً سؤالاً غير محدد، ولا جواب عليه لكن إذا وجه السؤال على طريقة ما هي علامات الحكم الصالح؟ فإن روسو يحيلها إلى شيء بسيط وهام، وهو أن هدف النظام السياسي هو المحافظة على أعضائه ورضاؤهم، والعلاقة الأكيدة هي حجم السكان، فالحكومة التي يتزايد السكان في ظلها ويتكاثرون دون الالتجاء إلى الوسائل الخارجية، أو التجنس أو إنشاء المستعمرات هي أفضل الحكومات، والحكومة التي يقل أهلها ويهلكون هي أسوأها.

ويفرق روسو بين الطاغية والمستبد، فالطاغية هو الذي يستولي على السلطة رغم أنف القانون؛ كي يحكم بالقانون، فالطاغية والمغتصب كلمتان لهما معنى واحد. بينما يضع المستبد نفسه فوق القانون، وبذلك يستطيع الطاغية ألاّ يكون مستبداً ولكن المستبد يكون دائماً طاغية.

وينبه روسو إلى أن جميع الحكومات حتى أفضلها تنظيماً يستحيل عليها البقاء الأبدي، فالجسد السياسي مثل الجسد الإنساني يبدأ يموت منذ لحظة مولده، ويحمل في ذاته أسباب هلاكه، بيد أن كليهما قد يكون بناؤه قوياً إلى حد يزيد أو ينقص، ويظل أكثر دواماً لمدة تطول أو تقصر.

ويعتبر روسو السلطة التشريعية قلب الدولة، والسلطة التنفيذية عقلها الذي يسير جميع أجزائها وقد يصاب العقل بالشلل، ويظل الإنسان حياً ولكن بمجرد أن يتوقف القلب ينتهي الأمر.

هـ ـ الهيكل العام للدولة المثلى:

وضع روسو معالم واضحة للممارسة الصحيحة والتطبيق السليم للدولة المثلى نبرزها فيما يلي:

١ ـ يجب أن تكون هناك اجتماعات دورية للشعب كله لا يستطيع شيء

منعها أو تأخيرها، ولا يكفي أن يجتمع الشعب مرة لإعلان موافقته على الدستور أو إنشاء حكومة دائمة أو انتخاب الحكام، وينبغي دائماً أن يكون افتتاح هذه الاجتماعات التي لا غرض منها سوى المحافظة على الميثاق الاجتماعي بتقديم اقتراحين لا يمكن إلغاؤهما مطلقاً، وتؤخذ الأصوات على كل منهما على حدة:

الأول: هل يرى الشعب الاحتفاظ بصورة الحكم الحالية؟.

الثاني: هل يرى الشعب ترك الإدارة في يد من يقومون بها حالياً؟.

٢ ـ إذا تعذر إبقاء الدولة في حدودها المناسبة حتى يسهل اجتماع الشعب، يبقى أمامنا وسيلة أخرى هي ألاّ نجعل لها عاصمة وتقيم الحكومة في كل مدينة بالتناوب.

٣ ـ إذا أردنا أن تكون الدولة أقوى ما يكون، وأفضل ما يمكن وجب توزيع، السكان بالتساوي في الأقاليم كلها وممارسة الحقوق نفسها في كل مكان، والعمل على تحقيق الرخاء والحياة في كل ركن من أركانها، ولتتذكر أن جدران المدن تتكون من أطلال منازل القرى. ويرى روسو بعين الخيال بلداً تحول بأسره إلى أنقاض كلما رأى قصراً جديداً يشيد في العاصمة.

٤ ـ بمجرد أن يجتمع الشعب اجتماعاً شرعياً بوصفه هيئة سياسية توقف جميع اختصاصات الحكومة، وتتوقف السلطة التنفيذية؛ لأنه عندما يوجد الأصل لا محل لمن يمثله، وبهذا يعترف الأمير بأن له سيداً يحاسبه وقاضياً يقف أمامه يدافع عن نفسه.

٥ ـ لا يمكن أن يكون للشعب ممثلون فيما يتعلق بسلطته التشريعية. وكل قانون لم يصدق عليه الشعب فهو باطل، وبمجرد أن يفضل الشعب الخدمة بماله على الخدمة بشخصه، وتبعد الخدمة العامة عن مكان الصدارة في اهتمام المواطنين تكون الدولة قد قربت من الدمار.

٦ ـ الذين يعهد إليهم الشعب بالسلطة التنفيذية ليسوا سادته، بل هم موظفوه ويستطيع تعيينهم أو عزلهم كما يشاء، والوضع بالنسبة لهم مسألة طاعة فقط، وهم بقيامهم بالمهام التي تكلفهم الدولة بها إنما يؤدون واجبهم بوصفهم مواطنين دون أي حق في مناقشة الشروط التي يحددها الشعب... ومن ثم فعندما يقوم الشعب بتعيين حكومة وراثية سواء كانت ملكية في عائلة، أو أرستقراطية في طبقة فإن ذلك ليس التزاماً من جانبه ولكنه مجرد صورة مؤقتة يعطيها للإدارة إلى أن يحلو له تغييرها.

٧ ـ إن السلام والاتحاد والمساواة أعداء الخداع السياسي والنفاق الدبلوماسي، وهي بواعث الحيوية في الدولة القوية، ولكن عندما تبدأ الرابطة الاجتماعية في التراخي وتبدأ المصالح الخاصة تفرض نفسها وتؤثر الشراذم الصغيرة في المجتمع ـ عندئذ تخرس الإرادة العامة ولا يبقى للمصلحة العامة سلطة على الأصوات، ويظهر التناقض ويثور الجدل ولا تمر خير نصيحة دون مناقشة.

٨ ـ عندما يتعذر إيجاد تناسب سليم بين أجزاء الدولة المختلفة، يجب إنشاء وظيفة خاصة تعمل على رد كل علاقة إلى وضعها الأصلي، وتكون حلقة اتصال بين الحكومة والشعب، وتحفظ التوازن بين أجزاء الدولة تلك هي وظيفة «محامي الشعب» وليس لها أي نصيب في السلطة التشريعية أو التنفيذية... ولكي تظل موضع الاحترام ينبغي أن تكون قليلة العدد وألاّ تكون دائمة.

و ـ الدين المدني:

يزعم روسو أنه لم يكن للناس في أول الأمر ملوك سوى الآلهة، ولا حكومة سوى الحكم الديني، وصار على رأس كل مجتمع سياسي إله وترتب على ذلك أن صار هناك آلهة بعدد الشعوب.

وهكذا نشأ تعدد الآلهة من التقسيمات القومية، ولما كان كل دين

مرتبطاً بقوانين الدولة التى تعتنقه لم تكن هناك وسيلة لتحويل شعب عن دينه إلّا بإخضاعه، وكان الشعار المرفوع هو البدء بالانتصار قبل الحديث عن تغيير الدين.

ويقسم روسو المسيحية إلى:

١ ـ مسيحية الإنجيل.
٢ ـ مسيحية القساوسة.

ويعتقد أن المسيحية الأولى ليست مملكتها في هذا العالم، وهى تبشر بالعبودية والطاعة، وروحها ملائمة للطغيان فإن استطاع طاغية أن يفرض نفسه على مواطنيه ويستولى على السلطة فسرعان ما يصير موضع تكريم لأنه إرادة الله، وإذا أساء الحاكم فى تصرفاته نظر إليه باعتباره العصا التى يعاقب بها الرب عباده.

والجندى المسيحى يعرف كيف يموت أكثر مما يعرف كيف ينتصر، وما يقال عن انتصارات الصليبيين لا ينسب إلى المسيحيين الحقيقيين بالمعنى الحرفى، فالإنجيل لا يؤسس دولة، والمسيحيون الحقيقيون خلقوا ليكونوا عبيداً وكل حرب مقدسة عند النصارى تكون مستحيلة؛ لأن استعمال العنف وسفك الدماء لا يتفق مع الوداعة المسيحية.

وأما مسيحية القساوسة فتعطي الناس تشريعين ورئيسين ووطنين أحدهما دينى والآخر مدنى، وتخضعهم لواجبات متناقضة وتقوم على أكاذيب تخدع الناس وتجعلهم بلهاء يؤمنون بالخرافات، ويغرقون عبادة الله الحقيقية في طوفان من الطقوس الجوفاء، وهي دين متعصب يجعل الشعب سفاكاً لا يعيش إلّا على دماء القتلى والمذابح وفى صراع دائم مع جميع الشعوب.

وتعرض روسو للإسلام ودولته وتاريخه فقال[1]:

---

(١) العقد الاجتماعي ترجمة عبد الكريم أحمد ص ٢٣٢.

«وكان لمحمد ﷺ آراء صائبة جداً، فقد أحسن ربط نظامه السياسي، وطالما كانت صورة الحكم التي وضعها باقية في عهد الخلفاء فقد ظلت هذه الحكومة واحدة تماماً وكانت حكومة جيدة. ولكن العرب صاروا موسرين ومتعلمين ومترفين ومتراخين، فأخضعهم البرابرة ومن ثم بدأ الانقسام بين السلطتين ورغم أن هذا الانقسام أقل ظهوراً لدى المسلمين منه لدى المسيحيين، فإنه موجود في كل مكان وخاصة في شيعة علي، وهناك دول مثل فارس لا ينقطع الإحساس به (الانقسام) فيها».

وأخيراً يبشر روسو بدينه الجديد في دولته المثلى، فمما يهم الدولة أن يعتنق كل مواطن ديناً يدفعه إلى حب واجباته، ولكن عقائد هذا الدين لا دخل للدولة فيها إلاّ بقدر ارتباطها بالمنفعة العامة، وليس من حق الأمير أن يعرف نصيب رعاياه في الدار الآخرة!!..

والدين المدني ليس عقيدة بقدر ما هو مشاعر اجتماعية ومبادئُه بسيطة وقليلة لا تحتاج إلى تفسير أو تعليق وهي:

١ ـ الإيمان بإله قادر كريم مدبر للأمور.
٢ ـ الإيمان بالحياة الثانية بعد الموت.
٣ ـ الإيمان بقدسية العقد الاجتماعي والقوانين.
٤ ـ البعد عن التطرف والتعصب البغيض.

ويمنح روسو الدولة حق طرد كل من لا يؤمن بهذا الدين لا بوصفه ملحداً، ولكن باعتباره خارجاً على المجتمع عاجزاً عن حب القوانين والعدالة بإخلاص، وعن التضحية بحياته إذا دعا الواجب.

وإذا وجد من يتصرف على غير مقتضى الدين المدني بعد أن أعلن ولاءه له فعقابه الموت؛ لأنه ارتكب أشنع الجرائم وهي الكذب أمام القانون.

تقييم وتقويم

حقيقة أم تشبيه:

أثارت فكرة العقد الاجتماعي جدلاً طويلاً، هل هو حقيقة تاريخية توضح نشأة المجتمع السياسي والسلطة الحاكمة، أو هى مجرد خيال فلسفى؟!.

قد علق «جورج سباين» بقوله[1]:

«إنه كان ينبغي لروسو تجنب فكرة العقد تماماً باعتبارها فكرة خالية من المعنى ومضللة».

وفصل «ارنست باركر» تعليقه في ثلاثة اتجاهات هى[2]:

١ ـ إن المجتمع لا يتكون ولم يتكون فى وقت من الأوقات على أي أساس من عقد، فالمجتمع اتحاد شامل الغرض، في العلم كله.. وفي الفن كله.. وفي الفضيلة كلها والكمال كله، وهو اتحاد يتعدى نطاق فكرة القانون وقد وجد ونما بذاته ولم يكن هناك أبداً عقد اجتماعى بالمعنى الدقيق المحدّد للفظ «اجتماعى».

٢ ـ ومن ناحية أخرى يمكن دون تجن ـ تصور الدولة بوصفها متميزة عن المجتمع على أسس تعاقدية، ويمكن أن نعتبرها قد تكونت على أساس عقد، وإن كان من النادر أن تنشأ الدولة بوساطة عمل تعاقدى (إلاّ فى أعقاب الثورات أو في حالة الاتحادات الفدرالية) والدولة ـ بوصفها هذا ـ اتحاد قانوني يتكون بتصرف أعضائه وهم يضعون دستوراً... وبذلك وعلى أساس هذا الدستور يتعاقدون على الاندماج في كيان سياسي، ودستور الدولة هو مواد عقد تتكون بمقتضاه الدولة، ومن وجهة النظر هذه لنا أن نتحدث عن «عقد سياسى».

---

(١) تطور الفكر السياسي جـ ٤ ص ٧٩١ ترجمة علي إبراهيم السيد.

(٢) مقدمة كتبها للعقد الاجتماعى ترجمة عبد الكريم أحمد ص ١٣.

٣ ـ ولكن لا تدعو الحاجة في عصرنا إلى الالتجاء أو إلى تطبيق فكرة «عقد حكم» يتفق بمقتضاه قسم من الدولة اسمه الحاكم أو الحكام مع قسم آخر اسمه الرعايا، فالعقد السياسي ـ الذي يوحدنا جميعاً حكاماً ورعايا على السواء على أساس الدستور وفي ظله تبعاً لصفة كل منا كما يحددها الدستور ـ كاف وهو العقد الوحيد..

ومن هنا يمكن أن نقول إن الفكرة تصويرية تعبر عن لسان حال المجتمع والعمران البشري وارتباط الناس بعضهم ببعض.

هذا ولعل المصدر المباشر لفكر زوسو عن العقد الاجتماعي هو فلسفة «توماس هوبز» (١٥٨٩ ـ ١٦٧٩) في كتابه السياسي «لاوياثان» بمعنى التنين أو العملاق..[١].

والفرق بينهما فيما يلي:

١ ـ الإنسان عند هوبز ـ في أصله ذئب للإنسان، والغريزة التي تحكمه هي حب البقاء ويرى أن من الخطأ الاعتقاد بغريزة اجتماعية تحمل الإنسان على التعاون.

أما روسو قد تناقض رأيه فهو في كتابه «أصل التفاوت» ينادي بالعودة إلى الطبيعة في حريتها وغرائزها وسعادة جهلها، ويرى في إنسانها المتوحد مثله الأعلى بينما هو في كتابه «العقد الاجتماعي» يصف إنسان الطبيعة بالبلادة وضيق الأفق وتسلط نزعات الجسد وشهوات الغريزة، ويعلي من إنسان المخلوق الذكي الذي عرف العدالة والأخلاق ونداء الواجب.

٢ ـ يمنح هوبز للحكم المطلق سلطة عامة في التشريع والتنفيذ، وحق تقرير عقائد الدين وقواعد الأخلاق، وهو يتمثل في شخص واحد تتوحد فيه كل السلطات.

---

(١) راجع عرضاً للكتاب في «تراث الإنسانية» المجلد الأول ص ٢٥١ قدمه د. زكريا إبراهيم.

ولكن روسو يضع هذه السلطة العامة في أيدي الشعب صاحب السيادة، فينفرد بالتشريع أصالة ويوكل التنفيذ إلى هيئة حكومية يختارها ليس لها حق في مناقشة ما تكلف به، ويعتبر روسو حكومة الفرد الواحد أنشط الحكومات.

٣ ـ يتفق كل من هوبز وروسو على ضرورة أن يتنازل الفرد عن كافة حقوقه.. غير أن هذا التنازل يكون إلى الحاكم المطلق عند هوبز وإلى الإرادة العامة عند روسو[١].

توضيـــح

أطلق روسو اسم «الجمهورية» على كل دولة يحكمها قانون أياً كانت صورة الحكم فيها وعلى هذا فالجمهورية جنس يشمل:

١ ـ الحكومة الديمقراطية.

٢ ـ الحكومة الأرستقراطية.

٣ ـ الحكومة الملكية.

ومنح الدولة حق إعدام الإنسان في موضعين:

١ ـ عندما ينقض الميثاق الاجتماعي.

٢ ـ عندما يرفض الدين المدني بعد قبوله.

لكن لكل فرد حق الرفض ابتداءً لكل منهما وحينئذ يجب طرده من الدولة ونفيه من الوطن..

وإذا كان روسو قد ربط بين صورة الحكم المثلى وظروف البيئة والمناخ ونوعية البشر فإن الرائد في هذا المضمار هو الفيلسوف المسلم ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ) في مقدمته المشهورة التي تحدث فيها عن جغرافية الكرة

(١) لمعرفة موقف الإسلام من السياسة ونظريته في الحكم راجع ص ١١٦ إلى ص ١٢٤ من الجزء الأول للكتاب.

الأرضية وقسط العمران منها، وأشار إلى ما فيه من أشجار وأنهار وأقاليم وأثبت أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي لفرط حره وقلة ميل الشمس عن سمت الرؤوس، وشرح أثر الهواء في البشر وأخلاقهم وكذا اختلاف أحوال العمران في الخصب والجدب وما ينشأ عن ذلك من الآثار البدنية والأخلاقية وتكلم عن العمران البدوي والأمم والوحشية والقبائل وما يعرض لها من أحوال..

هذا وإن الهكيل العام للدولة المثلى لدى روسو يؤدي إلى نتيجة هي أنه يحبذ قيام دولة المدينة أو مدينة الدولة، وهو بهذا مدين للفكر الإغريقي عامة وفلسفة أفلاطون خاصة، فطبيعة الأرض هناك جعلت من كل مدينة دولة لها حكمها وقوانين سياستها، وبرزت على السطح مدينتان قويتان هما «إسبرطة» و «أثينا» دارت الحرب بينهما سجالا...

والدين المدني في دولة روسو هو نفسه الدين الطبيعي الذي سبق أنه نادى به عند وضعه منهج التربية لتلميذه «إميل» ووصفه هناك بالطبيعي لأنه كان لا زال مؤمناً بسحر الطبيعة وقوة بساطتها وعمق سعادتها، ووصفه هنا بالمدني لأنه آثر الحياة المدنية ونادى بالمجتمع السياسي ورفض العودة إلى حال الطبيعة الأولى...

ومن هنا فإن التساؤل الذي افتتح به روسو كتاب العقد وهو:

ولد الإنسان حراً ولكنه في كل مكان مكبل بالأغلال... فكيف حدث هذا التغير؟!.

إن هذا التساؤل ينطوي على تناقض واضح مع ما أثبته في بقية الكتاب، إذ التساؤل يعني أن المجتمع بنظمه وقوانينه وهيئاته الحاكمة عبء ثقيل على الإنسان، سلبه حريته، بيد أن روسو في كافة أبحاث الكتاب يحاول أن يرفع من شأن الحرية المدنية التي كفلها الميثاق الاجتماعي، ويضفي على السلطة التشريعية والتنفيذية صفات الإنسانية الراشدة، ومزايا ذات مشاعر نبيلة وآفاق كريمة..

الوحى الإلهى:

أتى روسو بأمر عجاب عند حديثه عن نشأة القانون وعقائد الدين المدني، فقد اعتبر الشرائع نتاج عبقرية عقلية استنطقت الذات الإلهية حتى يقبل الناس الخضوع لقوانين الدولة كما يخضعون لنواميس الطبيعة، ومن التناقض البين أن يعبر عن إكباره للأنبياء عليهم السلام والإقرار لهم بالعظمة والقداسة ثم ينكر عليهم الوحي الإلهي، ومع هذا الإنكار لا يرفض الإيمان بالله بل يجعله فاتحة دينه المدني.

إذ إنه يرى أن العقل الإنساني حينما يعمق تفكيره، ويتناهى في السمو لا يخالجه شك في أن القوة المدبرة للكون والتي امتلأ بها إيماناً ـ هي التي أوحت إليه بحقائق التشريع ويرى لزاماً عليه أن ينشر في الأرض منهجه ويدعو الناس إلى تطبيقه.

وقد شرح روسو رأيه هذا بتفصيل في كتابه «إميل» وفي رده على أسقف باريس الذي أصدر منشوراً في أغسطس سنة ١٧٦٢ يفند فيه آراء روسو ويسفه أحلامه.

وقد افتتح الأسقف منشوره بوصف دقيق لحياة روسو وفلسفته قال فيه[1]:

«وهذا ـ الإلحاد ـ بنوع خاص هو ما يظهر أن بعضهم رمى إليه في كتاب حديث عنوانه «إميل أو التربية» فقد نشأ في حظيرة الخطيئة رجل ينتحل لغة الفلاسفة من غير أن يكون فيلسوفاً حقاً، إنما هو ذهن أفعم من المعلومات بجم لم ينره، وبعث بالظلمات إلى أذهان أخرى، وطبعٌ مولع بغرائب الآراء وطرائق السير في الحياة جمع بين بساطة الخلق وترف الفكر، وبين الشغف بقواعد الأقدمين وشهوة إقامة المحدثات، وبين خفية العزلة والرغبة في أن يعرفه الناس جميعاً، ورأىٌ يناهض العلوم التى يتعهدها،

---

(١) جان جاك روسو حياته وكتبه د. محمد حسين هيكل ص ٣٣٧.

يقرر كمال الإنجيل ثم يهدمه من أصوله، ويصف جمال الفضائل ثم يمحوها من نفوس قرائه، وأقام نفسه مهذباً للنوع الإنساني كي يضله، ومرشداً عاماً ليغوي الناس جميعاً، وهادي العصر ليفسد عليه أمره، ففي رسالته عن التفاوت نزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان، ودس في كتاب آخر سموم الشهوة زاعماً أنه يحاربها، واستبد في هذا الكتاب ـ كتاب التربية ـ بسني الإنسان الأولى ليقيم سلطان الإلحاد».

وجاء في رد روسو على الأسقف قوله[1]:

«إني أحترم جميع الذين وضعوا الأديان والمذاهب، لقد كان لهم جميعاً نبوغ عظيم وفضائل كبرى وذلك محترم أبداً، ولقد قالوا إنهم رسل من عند الله، وذلك ممكن أن يكون وألاّ يكون، والجماعة لا تستطيع أن تتفق في الحكم عليه أن ليست أدلته في متناول الكل على السواء، على أنهم لو لم يكونوا رسلاً فليس ذلك بداع إلى اتهامهم في خفة بأنهم كذبة دجالون؛ فمن يدري إلى أي حد يصل التفكير المستمر في الإلهيات والتناهي في الحرص على الفضيلة من أرواحهم حتى يفسد عليها المنطق ونظامه، ويجعلها تتعلق بشيء من أفكار العامة.

فعند التناهي في السمو يدور الرأس ولا يرى الإنسان الأشياء على طبائعها».

وهكذا يصر روسو على تناقضه في الجمع بين احترام الرسل وتكذيبهم ويضيف تناقضاً آخر وهو أن التناهي في السمو يؤدي إلى فساد المنطق ورؤية الأشياء على غير طبائعها!!.

ونحن إزاء هذا التناقض نورد نماذج لعلماء المسلمين في بحثهم عن النبوات وكيفية إثباتها ووجه الحاجة إليها..

ونختار ثلاثة نماذج:

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥١.

ابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥) ممثلاً لفلسفة المسلمين.
ابن تيمية (٦٥١ ـ ٧٢٨هـ) ممثلاً للمدرسة السلفية.
ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ) ممثلاً لمدرسة الموسوعات العلمية.

ابن رشد وبعثة الرسل:

تعرض ابن رشد في كتابه «مناهج الأدلة في عقائد الملة»[1] لمسألة بعث الرسل وسلك فيها مسلكه العام في الكتاب كله وهو نقد مذاهب المتكلمين ثم التنبيه على الطريقة المثلى في نظره لكيفية الاستدلال ويعنينا هنا منهجه في إثبات الرسالة والرسل..

وقد وضعه على مجموعة مقدمات كل مقدمة تسلم لأخرى تمهيداً أو تعقيباً واستهله بتلك القضية:

دعا محمد ﷺ الناس وتحداهم بالكتاب العزيز وجعله دليلاً على صدقه في رسالته فقال تعالى: ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[2].

وجعل ابن رشد هذه القضية تنبنى على أصلين:

١ ـ إن الصنف الذين يسمون رسلاً معلوم وجودهم بنفسه وهم الذين يضعون الشرائع للناس بوحي من الله لا بتعلم إنساني وليس ينكر وجودهم إلاّ من ينكر وجود الأمور المتواترة كوجود سائر الأنواع التي لم نشاهدها والأشخاص المشهورين بالحكمة وغيرها.

٢ ـ إن كل من وجد عنه هذا الفعل الذي هو وضع الشرائع بوحي من الله فهو نبي، وهذا الأصل أيضاً غير مشكوك فيه في الفطر الإنسانية فإنه كما أن من المعلوم بنفسه أن فعل الطب هو الإبراء وأن من وجد منه الإبراء فهو طبيب، كذلك من المعلوم بنفسه أن فعل الأنبياء عليهم

---

(١) تحقيق د. محمود قاسم ص ٢٠٩.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

السلام هو وضع الشرائع بوحي من الله وأن من وجد منه هذا الفعل فهو نبي.

والقرآن الكريم قد نبه على هذين الأصلين فقال:

١ ـ ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾[1].

﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ برهانٌ مِنْ رَبكُمْ وأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً ﴾[2].

وبيّن ابن رشد كيف نعرف هذين الأصلين فقال:

أما الأصل الأول فيعلم بما ينذرون به من وجود الأشياء التي لم توجد بعد فتخرج إلى الوجود على الصفة التي أنذروا بها، وفي الوقت الذي أنذروا، وبما يأمرون به من الأفعال وينبهون عليه من العلوم التي ليست تشبه المعارف والأعمال التي تدرك بالتعلم، وذلك أن الخارق للمعتاد إذا كان خارقاً في المعرفة بوضع الشرائع دل على أن وضعها لم يكن بتعلم وإنما كان بوحي من الله وهو المسمى نبوة.

ويعتبر ابن رشد المعجز في العمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة، ويفرق بينه وبين الشاهد القوي، وهو الخارق الذي ليس في نفس وضع الشرائع مثل انفلاق البحر وغيره، فليس يدل دلالة ضرورية على هذه الصفة المسماة نبوة وإنما يدل إذا اقترن إلى الدلالة الأولى.

وأما الأصل الثاني وهو معرفة كون القرآن معجزاً يدل دلالة قطعية على صفة النبوة فيتوقف على:

١ ـ أن يعلم أن الشرائع التي تضمنها من العلم والعمل ليست مما يمكن اكتسابه.

٢ ـ ما تضمن من الإعلام بالغيب.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٩.

(٢) سورة النساء، آية: ١٧٤.

٣ ـ نظمه الخارج عن النظم الذي يكون بفكر وروية.

وقد وجدت هذه الأمور كلها في الكتاب العزيز. ففيه معرفة الله وحقيقة السعادة الإنسانية والشقاء الإنساني وطرائق الخيرات وأحوال المعاد وقوانين الحياة، مما يقطع بأنه وحي من عند الله وكلام ألقاه على لسان نبيه، ويتأكد هذا المعنى بل يصير إلى حد اليقين التام إذا علم أنه ﷺ كان أمياً نشأ في أمة أمية، لم يمارسوا العلوم ولا نسب إليهم علم، ولا تداولوا الفحص في الموجودات على ما جرت به عادة اليونانيين وغيرهم... وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّهُ بيمينكَ إذاً لارتابَ المبطلونَ﴾[1].

وينتقل ابن رشد خطوة أخرى ليؤكد ختم النبوة بعد محمد ﷺ وعموم رسالته، وذلك عن طريق الإشارة إلى مقارنة الأديان التي تثبت أن شرح شريعة الإسلام في معرفة الله ومعرفة المعاد، ومعرفة ما بينهما تحتاج إلى مجلدات كثيرة مع اعترافنا بالقصور عن استيفاء ذلك الأمر الذي يعني أنها مسعدة للجميع عامة.

وقال ﷺ منبهاً على هذا المعنى الذي خصه الله به:

«ما مِنْ نبيٍّ مِنَ الأنبياءِ إلّا وقد أوتي من الآياتِ ما على مثلهِ آمنَ جميع البشرِ وإنّما كان الذي أوتيتُهُ وحياً وإني لأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تَبَعاً يَوم القيامةِ».

ودلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ليست مثل دلالة انقلاب العصا حيةً على نبوة موسى عليه السلام، ولا إحياء الموتى على نبوة عيسى عليه السلام، فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلّا على أيدي الأنبياء وهي مقنعة للجمهور فليست تدل دلالة وضعية إذا انفردت ـ على الصفة التي سمي بها النبي نبياً. أما القرآن فدلالته على هذه الصفة مثل دلالة الإبراء على

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٨.

الطب، ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما:

الدليل على أني طبيب أني أسير على الماء.

وقال الآخر:

الدليل على أني طبيب أني أبرىء المرضى.

فمشى الأول على الماء وأبرأ الثاني المرضى ـ لكان تصديقنا بوجود الطب للذي أبرأ المرضى ببرهان وتصديقنا بوجود الطب للذي مشى على الماء مقنعاً ومن طريق الأولى والأحرى.

ويجعل ابن رشد المعجز الخارق عن طريق العلم والعمل برهاناً مشتركاً بين الجمهور والعلماء ويخص المعجز بالأفعال الغريبة الخارقة بالجمهور لإقناعهم ويسميه المعجز البراني..

ابن تيمية والنبوات:

لابن تيمية كتاب يسمى «النبوات»[1] فصل فيه القول عن معجزات الأنبياء وكرامة الأولياء وخوارق الكفار، وناقش أقوال الفلاسفة، وآراء المتكلمين.

وقسم أصناف المعرضين عن النبوة إلى:

١ ـ رجل جاهل لم يعرف أحوال الأنبياء.

٢ ـ رجل معاند لهواه.

٣ ـ رجل شاك معرض عن طلب العلم مقصر، ولو طلب العلم تبين له الحق إذا كان متمكناً من معرفة أدلته.

٤ ـ رجل عاجز لم يصل إليه دليل ولا يتمكن من الوصول إليه.

ويرى ابن تيمية أن أبلغ الطرق البرهانية هي أن يقال:

الواحد من الناس قادر على إرسال رسول وعلى أن يرسل علامة يعرّف المرسل إليهم بها صدقه، فكيف لا يقدر الرب على ذلك؟!.

---

(١) ط المكتبة السلفية.

ثم إذا أرسله إليهم وأمرهم بتصديقه وطاعته، ولم يعرفه أنه رسول كان هذا من أقبح الأمور، فكيف يجوز مثل هذا على الله؟!.

ولو بعثه بعلامة لا تدلهم على صدقه كان ذلك عيباً مذموماً، فكل ما ترك من لوازم الرسالة إما أن يكون لعدم القدرة، وإما أن يكون للجهل، والسفه، وعدم الحكمة، والرب أحق بالتنزيه عن هذا من المخلوق.. فإذا أرسل رسولاً كان عليه أن يعرّفهم أنه رسول ويبين ذلك، وما جعله آية وعلامة على صدقه يمتنع أن يوجد بدون الصدق فامتنع أن يكون للكاذب المتنبي، فإن ذلك يقدم في الدلالة.

فهذا ونحوه مما تعرف به دلالة الآيات من جهة حكمة الرب، فكيف إذا انضم إلى ذلك أن هذه سنته وعادته ومقتضى عدله؟!.

وكل ذلك عند التصور التام يوجب علماً ضرورياً بصدق الرسول الصادق، وتلك الطريقة ـ وهي أن ما يستحقه المخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه فالخالق به أولى، وما ينزه عنه المخلوق من العيوب المذمومة فالخالق أحق بالتنزيه ـ تلك الطريقة مستعملة في القرآن كثيراً، ويسوق ابن تيمية أمثلة لذلك منها قوله تعالى:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسوداً وهُوَ كظيمٌ يتوارَى مِنَ القومِ مِن سوءِ بُشِّرِ بهِ أيمسكُهُ على هُونٍ أمْ يدُسُّهُ فِي التّرابِ ألاساءَ مَا يَحكُمُون ﴾[1].

ويستعرض ابن تيمية آيات القرآن، فيجدها تدل على أن الله سبحانه لا يؤيد الكذاب، بل لا بدّ أن يظهر كذبه وينتقم منه مثل قوله تعالى: ﴿ ولَو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويلِ لأخذْنا منه باليمين ثمَّ لقطعنا منه الوتين فما منكُمْ من أحدٍ عنهُ حاجزين ﴾[2].

(١) سورة النحل، آية: ٥٧ ـ ٥٩.

(٢) سورة الحاقة، آية: ٤٤ ـ ٤٧.

وهذا بتقدير أن يتقول بعض الأقاويل فكيف بمن يتقول الرسالة كلها؟ والوتين عرق في الباطن يقال هو نياط إذا قطع مات الإنسان عاجلاً وذلك يتضمن هلاكه لو تقوّل على الله، وقوله: ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ قيل لأخذنا بيمينه كما يفعل بمن يهان عند القتل فيقال خذ بيده فيجر بيده ثم يقتل، فهذا هلاك بعزة وقدرة من الفاعل، وإهانة وتعجيل هلاك للمقتول، وقيل: ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي بالقوة والقدرة فإن الميامن أقوى.

ويستدل ابن تيمي أيضاً بالحكمة الإلهية والعدل الرباني الذي يمنع أن يسوي بين خيار الخلق ـ وهم الأنبياء الصادقون ـ، وشرار الخلق ـ وهم المتنبئون الكاذبون ـ لا في سلطان العلم وبراهينه ولا في سلطان النصر والتأييد بل يجب في حكمته تعالى أن يظهر الآيات الدالة على صدق هؤلاء ويعزهم، وأن يظهر الآيات المبينة لكذب أولئك ويذلهم:

قال تعالى: ﴿ ولقدْ أرْسَلْنَا من قَبْلِكَ رُسلاً إلى قومِهِمْ فَجاءُوهُمْ بالبَيِّنَاتِ فانتقمْنَا مِنَ الَّذِينَ أجرَمُوا وكَان حقّاً علينا نصرُ المؤمنين ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ أمْ حَسِبَ الَّذينَ اجترحوا السّيئاتِ أنْ نجعلَهم كالّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ سواءً محياهُم ومماتُهم سَاءَ ما يحكمُون ﴾[2].

وقد جرت عادة الله سبحانه التي لا تقبل تبديلاً، أن النجاة والعافية والنصر والسعادة لمتبعي الرسل، وأن الهلاك والبوار لمكذبيهم. ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته: ﴿ أكُفّارُكُم خيرٌ مِنْ أولئكُم أم لكم برآءةٌ في الزُّبُرِ ﴾[3].

---

(١) سورة الروم، آية: ٤٧.

(٢) سورة الجاثية، آية: ٢١.

(٣) سورة القمر، آية: ٤٣.

أي إذا لم يكونوا خيراً منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم؟ هذا بطريق الاعتبار والقياس ثم قال: ﴿ امْ لكم براءةٌ في الزُّبُر ﴾ أي معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم.. فنفى الدليلين العقلي والسمعي... ثم ذكر قولهم: ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ وأنا نغلب من يغالبنا فرد عليهم سبحانه ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وهذا مما أنبأنا به من الغيب في حال ضعف الإسلام واستبعاد عامة الناس لذلك ثم كان كما أخبر!!.

فآيات الأنبياء مستلزمة لثبوت النبوة وصدق المخبر بها والشاهد بها ويمتنع أن تكون هذه الآيات مع التكذيب بها وكذب المخبر بها.. قال تعالى: ﴿ فمنْ أظلمُ ممّن كذَبَ على الله وكذبَ بالصدقِ إذْ جاءهُ أليسَ في جهنم مثوىً للكافرين والذي جاء بالصّدقِ وصدّق به أولئكَ هم المتقون ﴾[1].

فمن كذب على الله هم المتنبئون.
ومن كذب بالصدق هم المنكرون للرسالات.
والذي جاء بالصدق هم رسل الله وأنبياؤه.
والذي صدق به هم المؤمنون حقاً.

ويؤكد ابن تيمية أن جميع ما يختص بالسحرة والكهان وأهل الطلاسم، هو مناقض للنبوة فإن النبي لا يكون إلاّ مؤمناً، وهؤلاء كفار فوجود ما يناقض الإيمان هو مناقض للنبوة بطريق الأوْلى.. قال تعالى: ﴿ هَلْ أنبّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزّلُ الشياطينُ تنزّلُ على كلِّ أفاكٍ أثيم ﴾[2].

ثم إن جميع ما يختص بهؤلاء لا يخرج عن مقدور الإنس والجن أما آيات الأنبياء فخارجة عن قدرة الإنس والجن معاً، قال سبحانه: ﴿ قُلْ

(١) سورة الزمر، آية: ٣٢ ـ ٣٣.
(٢) سورة الشعراء، آية: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

لئن اجتمعت الإنسُ والجن على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ﴾[1].

وأكثر العلماء على أن الرسول لا يكون إلّا بشراً كما قال جل شأنه: ﴿ وَمَا أَرْسَلنا قبلَكَ إلّا رجالاً نُوحي إليهم ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾[3].

ولهذا قال الحسن البصري لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء.

ومن المعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان به فلا بدّ أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن، ولهذا لزمتهم الحجة يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿ يَا معشَرَ الجنِّ والإنسِ ألَمْ يَـأتِكُمْ رسلٌ مِنْكُمْ يقصُّـونَ عليكُمْ آياتي وينذرونَكم لقاءَ يَومكُمْ هذا ﴾[4].

ابن خلدون وحقيقة النبوة:

عرض ابن خلدون في مقدمته[5] لأصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة، وتكلم عن الوحي والرؤيا، وقدم موجزاً وافياً لآراء الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة حول هذه القضايا، وتفسير ابن خلدون لحقيقة النبوة قائم على أننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) سورة يوسف، آية: ١٠٩.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٣٠.

(٥) ط الأولى بالمطبعة الأزهرية ص ٥٦.

إلى الملائكية من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملَكاً بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة.

وهؤلاء هم الأنبياء، وتلك هي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها، وجبلة صورهم فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه.

وذكر ابن خلدون للأنبياء علامات مثل:

١ ـ أن يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والذكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة.. وفي الصحيح أن محمداً ﷺ حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره، ودعي إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس، بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إنه بجبلّته يتنزه عن المطعومات المستكرهة، فقد كان ﷺ لا يقرب البصل والثوم فقيل له في ذلك فقال إني أناجي من لا تناجون.

٢ ـ أن يدعوا إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك وكذلك أبو بكر ولم يحتاجا إلى دليل خارج عن حاله وخلقه، وفي الصحيح أن هِرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد ببلده من قريش، وفيهم أبو سفيان ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل أن قال: «بم يأمركم؟ فقال أبو سفيان: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف. فقال هِرقل: إن يكن ما تقول حقاً فهو نبي وسيملك ما تحت قدميَّ هاتين».

فانظر كيف أخذ من الدعاء إلى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوته.

٣ ـ أن يكونوا ذوي حسب في قومهم، وفي الصحيح «ما بعث الله نبياً إلاّ في منعة من قومه» وفي رواية أخرى «في ثروة من قومه» استدركه

الحاكم على الصحيحين، وفي مساءلة هرقل لأبي سفيان ـ كما هو في الصحيح ـ قال: كيف هو فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ذو حسب فقال هرقل: والرسل تبعث في أحساب قومها... ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته.

٤ ـ أن تقع لهم الخوارق شاهدة بصدقهم، وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت معجزة، وليست من جنس مقدور العباد، وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلاّ التحدي بها بإذن الله وهو أن يستدل بها النبي قبل وقوعها على صدقه في مدعاه، فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية، فالمعجزة هي الدالة بمجموع الخارق والتحدي ولذلك كان التحدي جزءاً منها.

* * *

وشرح ابن خلدون كيفية الوحي وحالاته، فذكر أن الوحي في اللغة الإسراع، وهو في حقيقته الشرعية استغراق في لقاء المَلَك الروحاني بإدراك الأنبياء المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية إما بسماع دوي من الكلام فيتفهمه، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله، ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقي إليه.. كل ذلك في لحظة واحدة بل في أقرب من لمح البصر.. وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي ﷺ الوحي فقال:

«أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ الجرسِ وهو أشدُّهُ عليَّ فيفصمُ عَني وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمّثل لي المَلَكُ رجلاً فيكلمّني فأعي ما يقول» وفي الوحي عموماً شدة وصعوبة قد أشار إليها القرآن في قوله: ﴿ إنّا سنُلْقي عليكَ قولاً ثَقِيلاً ﴾[1].

(١) سورة المزمل، آية: ٥.

وقالت عائشة: «كان يعالج من التنزيل شدة، وقالت: كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً».

لكن عندما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال بالنسبة إلى ما قبله، ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه بمكة أقصر منها وهو في المدينة، وانظر إلى ما نقل في نزول سورة «براءة» في غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته، بعد أن كان ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت والباقي في حين آخر.

* * *

وبعد:

فإن عناية الله التي شملت الكائنات كلها، ورحمته التي وسعت كل شيء ـ لحقيق بها أن تتعهد الإنسان في أمر معاشه كما تعهدته في أمر خلقه ـ.

وإن عقل الإنسان الذي هو مناط كرامته، لفي أمسّ الحاجة إلى نور الله يمهد له الطريق، ويقيم عليه المشاعل ﴿ لِيهلِكَ مَنْ هَلكَ عنْ بيّنةٍ ويحيا من حيّ عن بينّة ﴾.

وإن تاريخ الرسالات الإلهية لا يمكن أن يكون خيال شاعر، أو وهم فيلسوف، أو حيلة ذكي أريب، بل هو الحق في أجلى صوره وأصدق معانيه، ﴿ وما قَدَرُوا اللَّهَ حقَّ قدرِهِ إذْ قالوا ما أنزلَ اللَّهُ على بشرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾[1].

ومن أراد أن يعرف حقيقة الوحي الإلهي، وتاريخ الرسالات السماوية وسيرة الأنبياء والمرسلين، فليتجه في بحثه إلى الإسلام ورسوله الخاتم محمد ﷺ ومعجزته الكبرى القرآن المجيد.

فإن المصطفى من بين شخصيات العالم قديماً وحديثاً ـ حقيقة

(١) سورة الأنعام، آية: ٩١.

تاريخية، أجمع المؤرخون ـ أعداؤه وأحبابه ـ على معالم حياتـه وخصائص سيرته من مولده إلى انتقاله للرفيق الأعلى.

وقامت براهين العقل على أن القرآن الذي نقرأه الآن هو هو بعينه الذي بلغه محمد ﷺ، وتعهده من بعده أصحابه والمسلمون كافة، حتى عرفوا كل شيء عن سوره وآياته ومواطن نزوله، ووجوه قراءاته وإعراب كلماته، وهو النص الوحيد في العالم كله الذي يقرأ بالأسلوب الإلهي الأول الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد الأمين في مكة البلد الأمين.

* * *